نهوض البيت العلوى وإحياؤه لقريش
وَأهَمّ الدّول التى أنشأتها قريْش على
طول التاريخ
بعد الدّولتَين الأمَوية وَالعَبَّاسيَّة

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

دامت السيادة لقريش فى المشرق إلى سقوط بغداد فى أيدى المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ، ولكنها كانت سيادة اسمية مثَّلها الخليفة العباسى الذى انتهى دوره فى قيادة دولة الإسلام فى أيام المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ - ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١م) . فقد كانت فى هذا الرجل بقية من نخوة عربية وميل إلى رَمِّ ما وَهَى من أمر البيت العباسى واتجاه إلى إعادة الثقة إلى العرب وإعادة القوة والجلالة إلى قريش كى يعتز بالعرب ، ولكن المتوكل كان أقل من أن ينهض بمثل هذا العمل الضخم ، فقد كان طائشاً أهوج سكيراً مقبلاً على لذاته ، وكان دافعه إلى التخلص من الأتراك والعودة إلى العرب صادراً عن خوف من الأتراك ورغبته فى تأمين ملكه منهم بعد أن استبدوا بالخلافة .

ثم إن تدبيره المؤامرة لإيقاع مذبحة بالقادة الأتراك كان تدبيراً صبيانياً مكشوفاً ، وكانت كراهيته لابنه المنتصر أمراً عجيباً ، فقد كان أحرص ما يكون على إهانة ابنه هذا والإساءة إليه ، فانضم المنتصر إلى الأتراك ودبر معهم قتل أبيه ، وتم ذلك وعاد السلطان للأتراك ، وكانت تلك آخر محاولة عباسية للتخلص من سلطان الأتراك ، وبعد ذلك تتدهور الخلافة العباسية إلى درك سحيق وتدخل فى دور النزع الطويل . وعلى أيدى القادة الأتراك مات قاتل أبيه ، واختار القواد أحمد بن محمد المعتصم بالله خليفة ، وتولى عرش الخلافة باسم المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢هـ/ ٨٦٢ - ٨٦٦م) .

ومن ذلك الحين إلى نهاية الدولة العباسية فى بغداد لم يَعُدْ لقريش من الخلافة إلا اسمها ، وخرج هذا البيت القرشى من نطاق القوة والرياسة الفعلية لدولة الإسلام فى

المشرق ، حتى احترام الناس وإجلالهم لهم فقدوه ، فإن الأخطاء والجرائم التى ارتكبها العباسيون للوصول إلى الحكم والجرائم الأخرى التى قارفوها للبقاء فيه ، كل هذه بَغَّضت البيت العباسى إلى الناس . أضف إلى ذلك ما كان منهم من ميل عن العرب ونفور منهم وتفضيلهم غير العرب عليهم ولجوئهم إلى العرب أحياناً للاستعانة بهم فى إصلاح أمر بيتهم أو تدعيم الخلافة لواحد منهم ولا زيادة ، كل هذا باعد بين العباسيين والناس بشتى أجناسهم وطوائفهم ، فلم يعد للناس أمل إلا فى العلويين - أهل بيت النبى - واتجه المسلمون إلى تأييد كل طالب للمُلْك ثائر على العباسيين من بيت على بن أبى طالب .

وشيئاً فشيئاً وبعد العصر البويهى ، وفى منتصف العصر السلجوقى يتحول الخليفة العباسى إلى أمير من جملة الأمراء المتنافسين على السلطان فى العراق ، فكانت له أرضه وإقطاعه وجباياته وإتاواته على الناس ، وقد يزور الناس الخليفة للتبرك وقد يشاهدونه فى شرفة قصره للفرجة كما نرى فى رحلة ابن جبير ولكنه لم يعد رمزاً لشىء جَدِّى . وهكذا عاش الخلفاء العباسيون إلى آخر أيامهم فى بغداد وليس لهم من جاه القرشية وجلال الهاشمية إلا ذكرى مجد قديم ذهب مع أمس الدابر .

أما الجلالة الهاشمية فقد انتقلت إلى بيوت الأشراف من الهواشم ، واستقرت بصفة خاصة فى فروعهم التى لم تتوقف عن المطالبة بحقها فى السلطان يوماً ، وغالبيتهم العظمى من العلويين من نسل على بن أبى طالب عن طريق ابنيه الحسن والحسين . ولكنهم بعد مذابح كثيرة نزلت بهم ، مالوا إلى الهدوء والبعد عن السياسة، وهؤلاء الأشراف نجدهم فى كل بلاد الإسلام من غرب الصين إلى المحيط الأطلسى، فلكل بلد من بلاد الإسلام أشرافه من أصحاب العمائم الخضر ، ولا يمكن التحقق من نسب بيت من هذه البيوت ، فإن دعوى الأنساب أسرار لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه ، ولا نستطيع أن ننكر على بيت دعواه الهاشمية إلا إذا كانت لنا على ذلك حجة بالغة ، وفى حالات معينة معروفة تثبت دعوى الهاشمية ثبوتاً قاطعاً ، كما هو الحال فى أمر الأدارسة والأشراف السعديين والعلويين الفلاليين وبعض بيوت أشراف الحجاز . والتسليم بالدعوى فى كل هذه الحالات أسلم ما لم يَقُم دليل قاطع بالبطلان .

وبالنسبة لمؤرخ قريش يستوى صاحب الحق فى النسب ومدعيه بالباطل . فإذا صدق كان ذلك دليلاً على طول عمر قريش واستمرار القوة والسيادة فى بعض بيوتها ، أما إذا كذب كان ذلك دليلاً على استمرار جاه البيت وشرفه ، لأن الناس لا تنتسب لبيت إلا إذا كان هذا الانتساب يخلع على صاحبه جلالة وشرفاً ، ولم تعرف أمة الإسلام فى تاريخها جلالة هى أرفع من جلالة القرشية الهاشمية ، والانتسابات لبيوت قريش على طول التاريخ الإسلامى كثيرة جداً وإثبات دعواها بالغ العسر ، ولهذا كانت فى كل بلد من بلاد الإسلام نقابة أشراف ولها نقيب يُعتبر رأس أشراف أهل البلد وإن لم يكن له فى السياسة أى نصيب ، وهذه النقابات هى التى تتحرى عن الأصول والأنساب وتجيز الانضمام للنقابة لمن تتحقق من صحة نسبه ، والأشراف فى المفهوم العام هاشميون علويون ولكن يدخل معهم القرشيون من الهواشم جملة ، وأحياناً يسمى نقيب الأشراف شيخ قريش .

وقد تتجه همة بعض أولئك القرشيين لطلب السلطان وإذا ساعدت الظروف ووُجد فيهم من له ميل وأهلية لشئون الحكم والسياسة ، وهنا تقوم دولة قرشية هاشمية فى الغالب يطول عمرها أو يقصر ، ولكن الدول التى يقيمونها فى العادة تكون صغيرة لا تتميز عن غيرها بشىء ، لأن القرشية فقدت هذه الهالة التى أحيطت بها خلال العصر الراشدى ، ولم يبق منها فى قلوب المسلمين من الجاه إلا الحب العميق الذى يُكِنُّه المسلمون جميعاً لرسول الله ﷺ النبى القرشى الذى اصطفاه الله من بيت بنى هاشم ، وأمره أن يبلغ رسالته إلى الناس . لتشمل أهل الأرض أجمعين . وقد يُوفَّق طالب السلطان من بنى هاشم فى إنشاء دولة أو لا يُوفَّق .

ولدينا أمثلة كثيرة من هذه التوفيقات السياسية التى أدركها القرشيون فى عالم الإسلام على مدار العصور الماضية بل إلى يومنا هذا . وسأنفق بقية هذا البحث فى دراسة أهم الدول القرشية التى قامت خلال التاريخ ، وكلها هاشمية إلا دولة بنى أمية العبشميين ، وأسرة يقال إنها مروانية فى بلاد الفور فى جنوب غربى السودان النيلى.

وسأكتفى هنا بالدول القرشية الكبرى أو التى تميزت بطابع خاص ، أو قامت

بعمل عظيم ؛ لأن إحصاء الدول القرشية على طول التاريخ وعرضه عسير كل العسر، والتأريخ لها أعسر . والذى نريد أن نظهره للناس هى حيوية الأرومة القرشية والهاشمية خاصة . فهذه القبيلة تعتبر من أصغر القبائل المعروفة فى التاريخ حجماً ، ولكنها دون شك أعظمها كلها ، فقريش أنشأت لغة تعتبر من كبريات لغات البشر ، وحملت عبء نشر الإسلام وأقامت حضارته ، ومن بين أظهرها ظهر سيد الأنبياء وخاتم النبيين ﷺ ، ورغم ما أصابها على طول التاريخ فقد بقيت بيوت من قريش تحكم أمماً كثيرة من كبريات الأمم إلى يومنا هذا . وهذه ظاهرة فريدة فى بابها فى التاريخ وسندع دولتى الأمويين والعباسيين فقد تحدثنا عنهما بما فيه الكفاية فى تضاعيف هذا البحث .

الدّولة الأموية الأندلسيّة

وأقدم المحاولات القرشية بعد الأمويين المشارقة والعباسيين هى محاولة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل ، وتمكُّنه من إنشاء الدولة الأموية الأندلسية فى سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٦م ، وهى من أعاظم دول الإسلام ، وهى كذلك أنجح محاولة للحكم قام بها رجل عبشمى من غير بنى هاشم ، لإنشاء دولة ذات كيان وشخصية ووظيفة وتاريخ بعد أن ماتت الدولة الأموية المشرقية .

ولا يرجع توفيق هذه الدولة إلى محبة كانت عند الناس لبنى أمية ، بل لأن عبد الرحمن بن معاوية كان من أعاظم الموهوبين فى شئون السياسة والحرب وقيادة الناس وقد أعانته بالفعل ظروف مواتية ، ولكن فضله يتجلى فى أنه استطاع الإفادة من الظروف التى وجدها إلى درجة باهرة ، وإذا نحن قسنا توفيق هذا الرجل فى الظروف التى قامت فيها دولته بمعاوية بن أبى سفيان أو مروان بن الحكم لوجدنا عبد الرحمن ابن معاوية يشف عليهما شفوفاً واضحاً ، لأن كلاً من معاوية ومروان أقام دولته وهو بين رجال بيته وتحت يده قوة عسكرية تؤيده ، ثم إن أهل المشرق كانوا بعد مقتل عثمان فى شوق إلى الخروج من الفتنة وجمع الكلمة ، وأمة الإسلام فى المشرق كانت لا زالت بخير ، وقد استطاعت الأمة أن تُغلِّب العقل على العاطفة وأيدت أقوى

طلاب الحكم وأصلحهم بعد استشهاد على بن أبى طالب ، فعلت ذلك محافظة على الوحدة ، لا تسليماً بحق معاوية .

أما عبد الرحمن بن معاوية الداخل فقد أقام دولته بيمينه فعلاً، وقد أعانه فى ذلك موالى بنى أمية وكانوا فى الحقيقة جماعة قوية تجمعها مصالح مشتركة إلى جانب الولاء للبيت الأموى ، ولكن إقامة الدول ليست أصعب خطوة فى تاريخها ، وإنما المهم هو الاستمرار وتدعيم البناء وتهيئة السبل والوسائل لاستمرار الدولة على حال القوة والسيادة والقيام بمطالب الحكم ومسئولياته على نحو يستأهل تأييد الناس ويؤدى بهم إلى الرضى والتسليم ، فقد طلب الخلافة مثلاً عبد الله بن الزبير فى المشرق ، قبل قيام دولة عبد الرحمن الداخل بما يقرب من نصف القرن ، وكان عبد الله بن الزبير صحابياً ابن صحابى ، وقد قام فى المدينة المنورة واعتصم بمكة ودخلت فى طاعته مصر والعراق وربما خراسان ، ولكن الرجل نفسه لم يكن مؤهلاً للرياسة أو السياسة ، وقد كان له عضد قوى فى أخيه مصعب بن الزبير وأيَّدته القيسية كلها ، ولكنه لم يفد من تلك الظروف بل جعلها - بِضَعْف تفكيره السياسى - موضع ضعف فى حركته .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن البيت الأموى تميز دائماً بوحدة عاطفية عصبية كانت من أكبر عناصر قوته فى صراعه السياسى مع منافسيه سواء قبل الإسلام أو بعده ، فلم تتفكك وحدة البيت المروانى فى المشرق إلا بعد ضربات عنيفة تلقاها البيت نتيجة لأخطاء بالغة وقع فيها بعض خلفاء بنى أبى سفيان بن حرب ، ثم بعض بنى مروان ابن الحكم ، وأخطر هذه الضربات هى الخلافات الحادة التى وقعت بين أفراد البيت المروانى ، وما استتبعته هذه الخلافات من إضعاف الرابطة التى كانت تربط البيت المروانى بالقبائل الشامية العربية الكبيرة ما بين قيسية ويمنية ، أى أن بنيان الدولة تصدع فى صفوته وقيادته ، ومثل هذه الصدوع تكون فى العادة مُؤْذِنة بانهيار النظام السياسى الذى تقوم عليه ، فهو صدع رأسى يصعب التئامه .

أما دولة بنى أمية الأندلسيين فقامت على وحدة البيت المروانى الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ، وقامت كذلك على تأييد جماعات موالى بنى أمية ،

وهى جماعات صغيرة من ناحية العدد ، ولكنها كانت أقلية قوية واعية إلى أن أساس قوتها هى قوة البيت المروانى وضرورة التفافها حوله لتستمر هيبته وسلطانه .

جماعة الموالى الأندلسيين هذه لم تكن كلها موالى خلفاء البيت الأموى ولا موالى البيت جملة ، بل يدخل فيها موالى قريش بمن فيهم موالى بنى هاشم ، وفيهم قلة من موالى رسول الله ﷺ .

وموالى بنى أمية الأندلسيون لم يكونوا كلهم من غير العرب بل كان فيهم عرب . والولاء هنا انتساب ، ففى جماعات الجند العربى الفاتح للمغرب والأندلس كانت فصائل من الجند العربى تدخل فى ولاء الخليفة القائم بالأمر ليكون هذا الولاء عنصراً من عناصر قوتها وضماناً لحسن معاملة أفرادها من جانب الحكام والولاة ، وبعضهم اكتسب هذا الولاء منذ كانوا فى المشرق وقبل اندراجهم فى جيوش الفتح ، وبعضهم كان من بربر المغرب ، فكان بعض شيوخ القبائل البربرية يدخلون فى ولاء الخلفاء أو عمالهم مثل : عقبة بن نافع ، وحسان بن النعمان ، وموسى بن نصير ، فتدخل القبيلة كلها فى هذا الولاء الذى يأخذ هنا معنى الحلف أو الأُخوة التى تترتب على هذا النوع من الأحلاف فيقال فى هذه الحالة : إن الرجل أخو بنى فلان .

وهذا الولاء كان يرفع أصحابه درجة على غيرهم من جماعات العرب والبربر المندرجة فى الجيش ، وقد تكونت فى المغرب والأندلس جماعات من أولئك الموالى ، أما موالى المغرب فقد تلاشوا أثناء الفتنة المغربية الأولى التى كانت فى المغرب الإسلامى كله احتجاجاً على تصرفات حكام العرب وخاصة القيسية منهم ، وكانت بداية هذه الفتنة سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠م فى خلافة هشام بن عبد الملك وولاية عبيد الله ابن الحبحاب على المغرب والأندلس ، وما دامت الفتنة المغربية قد قامت على بنى أمية فقد كان من الطبيعى أن يختفى أولياؤها ومواليها . أما فى الأندلس فقد ظلت البلاد تابعة لبنى أمية بالاسم رغم افتراق الكلمة والحروب الأهلية بين العرب بعضهم وبعض ، وبين العرب والبربر ، والفتنة هناك لم تأخذ صورة ثورة على بنى أمية وحكمها فحسب ، بل أخذت كذلك صورة نزاع على السلطان بين الكلبية والقيسية ، وكلاهما كان فى وقت أو آخر من صنائع بنى أمية ، أو بين العرب والبربر ، وهنا نجد

أن العرب جميعاً فى الأندلس يتمسكون بطاعة بنى أمية ، وتنتهى فتنة عصر الولاة فى الأندلس بنصر العرب وهزيمة البربر ، فأما العرب فقد التفُّوا حول راية الوالى الأموى ، وكان فى الغالب منتخباً من الجند المحليين ، وكان زعماؤهم فى ذلك موالى بنى أمية .

وعندما وصل عبد الرحمن الداخل إلى المغرب ونزل فى كنف قبيلة نفزة البربرية فى المغرب الأوسط ، أو فى ناحية طنجة ، وأرسل مولاه إلى الأندلس يستطلع له الأحوال فيه ، رحب به موالى بنى أمية من العرب والبربر جميعاً ، لأن رجال البربر توقعوا أن ينقذهم هذا التمسك بالولاء الأموى من الوهدة التى تردوا فيها من انتصار العرب عليهم فى وقعة أقوة برطورة ، وبهذا اتفق موالى بنى أمية جميعاً على تأييد عبد الرحمن وعاونوه بإخلاص على إقامة إمارته فى ١٤ مايو ٧٥٨م .

وقد تجلت موهبة عبد الرحمن الداخل السياسية فى أنه بعد انتصاره وإقامة دولته ، ظل يحتفظ بهؤلاء الموالى وظل يعتمد عليهم فى الإدارة والحرب . وهو لم يعاملهم بالطريقة غير المعقولة التى عامل بها أبو العباس عبد الله السفاح وأبو جعفر المنصور نقباء الدعوة العباسية ودعاتها ، فبينما اتجه العباسيان إلى القضاء على النقباء والدعاة أو إهمالهم ، والاعتماد على جند مرتزق مع الاعتزاز ببعض قادة العرب ونفر من الموالى نجد عبد الرحمن الداخل يحفظ لبيوت الموالى مكانتها ويجعل منها بيوتاً مساندة للحكم الأموى ، ومن هذه البيوت اختار رجال دولته . وكان معظم رؤساء بيوت الموالى هؤلاء رجالاً ممتازين ذوى مواهب وعقول ، فوضعوا أيديهم فى أيدى بعضهم بعضاً ، واجتهد كل بيت من بيوتهم فى بذل أقصى الجهد فى خدمة الأمير فى وظائف القيادة والحجابة والوزارة وولاية النواحى حكومة المدن وما إليها .

واجتهد كل بيت من بيوت هؤلاء الموالى الأندلسيين فى أن يكون له تخصص فى ناحية من نواحى خدمة الدولة دون إهمال النواحى الأخرى ، فاشتهر بيت بنى مُغِيث ومؤسسه عبد الكريم بن مغيث الرومى مولى عبد الرحمن الداخل فى القيادة العسكرية، وكذلك بيت بنى عَبْدَه (ومؤسسه حسان بن أبى عبده) وبيت بنى بُخت (مؤسسه يوسف بن بُخت) فى الإدارة والوزارة ، وبيت الزجالى فى الكتابة ، وهكذا

نجد الأمير المروانى مُحاطاً دائماً ببيوت موالية له مخلصة فى خدمته على رأسها رجال ذوو مواهب وملَكات ، وفى كل بيت من الكهول والشباب المدربين المستعدين للخدمة العدد الوفير ، فيختار منهم الأمير من يشاء دون أن يخشى انقلاباً أو خيانة ، لأن هذه البيوت أصبح مثلها بيوت الأشراف التى كانت تحيط بالأسر المالكة فى الغرب ، وتساندها وتسد خللها وتجمع شملها وترأب صدوعها وتكسب لها ولاء الناس .

وإلى هذه البيوت من الموالى وسياسة بنى مروان معها نشأ نظام تعدد الوزارة فى الأندلس ، فإن الأمير كان يُرقِّى من يشاء من رجال هذه البيوت إلى مرتبة الوزارة ، فإذا غضب عليه وأراد إدالته بغيره أقاله فلزم بيته مع لقبه ونعمته ، وقد يعيده إلى الخدمة فيما بعد ، ومن النادر جداً فى تاريخ المروانيين الأندلسيين أن نسمع عن نكبة وزير ، فإن نظام الإقالة من الخدمة مع الإبقاء على النعمة أصبح نظاماً متبعاً فى الدولة الأموية الأندلسية .

وبفضل هذا النظام صلح أمر البيت القرشى المروانى فى الأندلس ، ورضى عنه الناس وطال عمره ، لأن الحكم لم يكن هناك استبدادياً فردياً قط ، بل كان شورياً فى جماعة صغيرة معينة انضم إليها فقهاء المالكية الذين أيدوا البيت المروانى فكافأهم الأمراء على ذلك بحصر القضاء والفتيا فيهم ، وقامت دولة المالكية إلى جانب دولة المروانية وشَدَّ الوزراء أَزْر البيت وسدوا خلل الحكم وقدم له الممتازون من أهل الفقه إلى جانب بيوت الموالى أو بيوت أهل الحكم أو بيوت الأسر الموازية خدمات لا تُحصى .

بفضل هذا النظام فى الحكم الفريد فى بابه فى تاريخ الدولة الإسلامية استطاع بنو أمية الأندلسيون أن يطيلوا عمر دولتهم على حال مشكورة من القوة والسيطرة على شبه جزيرة إيبريا ، وهى من أعسر بلاد الله على الحكم وأصعبها على التوحيد تحت نظام سياسى واحد ، ومن الواضح أن هذا النظام لم يكن السبب الوحيد فى نجاح رجال البيت الأموى الأندلسى ، لأن رجال البيت المروانى فى جملتهم تمتعوا بنصيب كبير من القوة والحزم والقدرة على سياسة الأمور .

ولكننا نستطيع القول بأن نظام الحكم الجماعى هذا كان من أقوى الأسباب فى اتصال سلسلة الأمراء الأَكْفاء فى البيت المروانى ، فمن الثابت أن رجال هذه البيوت لهم فضل كبير فى سَدِّ خلل الحكم وتلافى أضرار شطحات الأمراء وميلهم إلى التعدى والاستهتار بالقانون وبالعرف والتقاليد ، وكثيراً ما تدخَّلوا فى اختيار الخليفة وأحسنوا الاختيار ، فقد كان الحكم بن هشام الملقب بالربضى مستبداً غاشماً أول حكمه ، ولو تُرِك على حاله لأصاب البيت الأموى بلاء شديد ؛ لأن أهل الأندلس كانوا شعباً عنيداً قوى الشكيمة شديد المراس عنيف المقاومة جريئاً على الدول والحكام .

وقد كاد أهل المربض (الضاحية الجنوبية) فى قرطبة يطيحون به فى ثورتهم الثانية عليه سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م . ولم يَنْجُ الأمير من اهلاك وقصرُه من الخراب إلا بفضل الحاجب القائد عيسى بن شهيد الذى لجأ إلى حيلة خسيسة ولكنها فعالة ، إذ أمر فِرَق الصقالبة من حرس الأمير بالهجوم على بيوت الثائرين وإلقاء النار فيها وفيها أسر الثائرين ونساءَهم وعيالهم ، فما راعهم إلا والنار مندلعة فى بيوتهم وهم يهاجمون القصر فتركوا ما كانوا فيه وارتدوا لإنقاذ ذويهم ، وهنا ركب خيالة الجند أقفيتهم وكادوا يُفْنونهم . وقد نجت الإمارة بهذه الفعلة ، ولكن ثمن النصر كان فادحاً فيما بعد ، لأن حقد أهل قرطبة والأندلس جميعاً على العسكر الأموى أصبح عميقاً وشاملاً ، واستمر عبر الأجيال حتى كان من أكبر أسباب ضياع آمر الخلافة القرطبية المروانية .

وقد تكررت أعمال النابهين من رجال هذه البيوت فى تلافى أخطاء الأمراء ، وتلافى نتائج الكثير من اتجاهاتهم إلى الظلم ، ولكن الأمراء أنفسهم ظلوا دائماً على مستويات طيبة من اليقظة والقدرة ، وإذا كان رجال مثل الحاجب القائد أبى العباس أحمد بن أبى عبدة قد أنقذ الإمارة القرطبية من الضياع تحت ضغط الثائرين والواثبين الذين غصَّت بهم الأندلس أثناء إمارة الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ - ٩١٢م) . فإن الأمير عبد الله نفسه كان من أفذاذ الأمراء . كان عاقلاً عنيداً حكيماً لا يميل إلى راحة ، أو يستنيم لكفاية وزير أو حاجب ، وقد ظل طوال سنين إمارته

الثلاثين ثابتاً لخصوم الإمارة - حتى فى الوقت الذى ضاق فيه نطاقها حتى اقتصرت على ولاية قرطبة - ظل هذا الرجل الصلب راسخاً كالطود حتى أعيا خصومه والخارجين عليه واستنفد قواهم ، فهلك بعضهم فى أيامه وتهيأ البقية للاستسلام حتى أمنت إلى أمير شريف مأمون الجانب سليم الذمة بعد وفاة الأمير عبد الله ، وكان هذا الأمير هو عبد الرحمن بن محمد حفيد عبد الله ، الذى أنهى مقاومة الثائرين وتلقى استئمانهم وبَرَّ لهم بما وعد من الأمان ، فاستقر له الأمر وعاد مُلْك البيت المروانى يُظِلُّ الأندلس الإسلامى كله .

ولهذا وجد عبد الرحمن أنه جدير بلقب الخلافة ، إذ رأى نفسه أحق بها من معاصريه العباسيين والفاطميين ، فنادى بنفسه خليفة فى ذى الحجة ٣١٦هـ/ أوائل ٩٢٩م . وبذلك عادت الخلافة إلى البيت المروانى بعد اختفائها ١٨٤ سنة قمرية ، وهذا فى ذاته حدث فريد فى بابه ، وهو من أنصع الأدلة على حيوية الفرع المروانى من آل أمية القرشيين ، ويزيد فى وضوح هذا المعنى أن الخليفة الأموى المشرقى الذى انتهت الخلافة الأموية المشرقية فى أيامه ، وهو مروان بن محمد لم يكن بالخليفة الضعيف أو العاجز أو القاعد ، بل كان نشيطاً عنيداً حتى سُمِّى بالحمار لعناده وإصراره ، وقد فقد الخلافة ، لأن زمان بنى مروان فى المشرق كان قد ولَّى ونخر فى عظام مُلْكهم سوس الفساد وانشقت عصا جندهم العربى ، ودأب مروان هذا على القضاء على اليمنية فأساء إلى نفسه وبيته بذلك أكبر إساءة ؛ لأن اليمنيين كانوا فى الواقع دعامة البناء العسكرى للبيت الأموى .

وهذا يفسر لنا اجتهاد العناصر اليمنية فى خراسان فى القضاء على دولة مروان بن محمد ، أما مروان بن محمد نفسه فقد ظل يناضل فى عناد حتى قُتِل فى صعيد مصر ، ولم يكن مقتله نهاية البيت المروانى فقد تجدد فى حديث أسطورى الطابع فى نواحى شرق السودان النيلى شمال شرق نيجيريا ، وتجددت الخلافة الأموية نفسها فى صورة تاريخية تدعو إلى الإعجاب على يد الأمير عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ثم على يد حفيده عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، الذى أخذ يوم إعلانه خلافته لقب الناصر لدين الله ، وطريف من الأمر أن أبا حيان بن خلف

ابن حيان مؤرخ البيت الأموى الأندلسى لا يذكر عبد الرحمن الثالث إلا بلقبه الكامل : « الناصر لدين الله أمير المؤمنين » إعزازاً له وتقديراً . وبيت بنى مروان فى الأندلس كسب بفضل أمرائه وخلفائه ورجاله إجلال أهل الأندلس جميعاً ، فتعلقوا به وفاخروا به على نحو لم تظفر به دولة من دول الإسلام بعد الخلفاء الراشدين ، ومن أنصع الأدلة على ذلك حماس رجال مثل ابن حزم وابن حيان للبيت الأموى بعد زواله .

وبفضل تلك الجلالة التى كسبها البيت المروانى القرشى فى الأندلس ، عاد اسم قريش إلى العلو فى عالم الإسلام علواً كبيراً .

وكان أمراء بنى مروان الأندلسيين عرباً خالصين ، ولا نقصد هنا عروبة الدم ، فإن أمهات كل من تولى عرش قرطبة كُنَّ غير عربيات ، حتى أم عبد الرحمن الداخل كانت بربرية ، كلهم وُلِدوا لأمهات أولاد معظمهن جليقيات أى من إقليم جليقية شمالى غرب شبه الجزيرة ، أو بشكونسيات أو صقلبيات ، ولكننا نقصد ناحية القلب واللسان والعقل والثقافة والروح ، فقد كان بنو أمية الأندلسيون عرباً لساناً وفكراً وأسلوب حياة ، وقد اتبعوا فى ترتيب قصورهم وشئون إدارتهم تقليداً شرقياً يسمى بالتقليد الشامى ، يقوم على اللغة العربية والاعتماد على رجال عرب الشام وأبنائهم ، حتى موالى بنى أمية كان الشاميون منهم يُفضَّلون على مَنْ سواهم .

وقد حسب المستشرق الإسبانى الموهوب خُليان ريبيرا نسة الدم العربى فى دماء عبد الرحمن الناصر ، فجاءت واحداً على ستة عشر ، ولكن الرجل كان عربياً فحلاً فصيحاً ظاهر القرشية رغم أن أمه كانت جارية جليقية تسمى مارية ، يحرفها بعض المؤرخين إلى ماوية ، وكذلك كان ابنه الحكم المستنصر ، وهو ابن جارية مشهورة تسمى مرجان أصلها بشكنسية الأصل ، وقد حكى ابن حيان فى الجزء الخامس من تاريخه «المقتبس » من أمرها عجباً ، وهذه هى صبح البشكنسية التى قامت بدور سىء فى تمكين الطاغية المستبد المخرِّب محمد بن أبى عامر من السلطان فى دولة بنى أمية .

وكانت لبنى مروان الأندلسيين نتيجة لروحهم العربى الإسلامى هذا عناية فائقة

بالعلوم والكتب ، ويندر أن نجد منهم واحداً غير شاعر ، ومنهم الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر ، وهو خليفة فقيه عالم توسع فى العناية بمكتبة القصر حتى صارت دار كتب تقع فهارسها فى ٤٤ كراسة فى كل كراسة منها خمسون ورقة ، والفهارس كما هو واضح لشتى العلوم والفنون ، فكأن فنون الكتب فى هذه المكتبة العامرة كانت ٤٤ فناً ، ومجموع كتب المكتبة قرابة المائة ألف كتاب على الأقل ، لأن كل فهرس كان فيه خمسون ورقة ومجموع الأوراق ٢٢٠٠ ورقة وهى ٤٤٠٠ صفحة ، ولم يكن فى هذه الصفحات إلا عناوين الكتب فحسب ، فإذا حسبنا أن كل صفحة ضمت عشرين عنواناً فهذه ٨٨٠٠٠ عنوان ، وهذه فى الحقيقة أضخم مكتبة واحدة سمعنا عنها فى التاريخ إلى العصر الحديث ، ولقد حدثونا عن ملايين الكتب فى مكتبات بغداد والقاهرة ، ولكنها كلها مبالغات لا تُصدق ، ولكن هنا رقماً حقيقياً لعدد الكتب فى مكتبة القصر بقرطبة ، وقد جمعها واهتم بها وأمر بتجليد كل كتبها خليفة مروانى قرشى هو الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله .

وهذا لا يمنع من القول بأن بنى أمية الأندلسيين كانوا إسباناً فى نفس الوقت ، كانوا أبناء الوطن الأيبيرى مع قرشيتهم . الأندلس كان وطنهم وهم كانوا المسئولين ، وكان عليهم أن يخلصوا له ويدفعوا عن أهله ويطبقوا شرع الإسلام فيما خضع لهم من أرضه ، وهذه فضيلة من كبرى فضائلهم وسبب من أكبر أسباب طول عمر دولتهم . كانت القرشية والإسلام الرابطة الدينية والفكرية واللغوية والمعنوية ، أما الأيبيرية فكانت وطنهم الذى أحبوه وارتبطوا به ودافعوا عنه ، وكانت أمهاتهم ايبيريات وكذلك كان الكثير من خدمهم ، فنشأوا يتكلمون الإسبانية لغة ثانية يتكلمون بها بسيولة فى بيوتهم ومع نسائهم ومع أهل وطنهم ، ومن الثابت لدينا أنهم جميعاً ، ابتداء من هشام الرضى كانوا يتحدثون أىَّ اللغتين شاءوا بنفس السيولة .

ولدينا أوصاف مشاهد من مجالس الأمراء والخلفاء والقضاة تؤيد ذلك وكانت لبعضهم ألقاب إسبانية ، فمن أحفاد هشام الرضى هذا كان عالم ومؤرخ اعتمد عليه أبو حيان يسمى معاوية الشبانسى أو ابن الشبانسية ، وهذا اللفظ تحريف للفظ إسبانى هو سابينتيا Sabientia أى التبحر فى العلم ، ومن أحفاد الحكم الربضى رجل

يسمى عبد الله بن عبد العزيز تولى الوزارة ذات مرة وكان بخيلاً فلقَّبه أصحابه بالبطره شك وهما لفظان إسبانيان Piedra Seca أى : الحجر اليابس كما يقول ابن حزم .

وهذه العصبية الإسبانية هى التى مدت لذلك البيت خيوطاً فى الأندلس فاختلطوا بالناس وفهموهم وارتبطوا بالأرض والناس فازدادت دولتهم تمكُّناً ، وأصبحت دولة نابتة فى التربة الإسبانية ، واغلة عروقها فى الأرض الأندلسية ، ولم يكونوا كالكثيرين من أصحاب دول الإسلام فى مواضع أخرى : محتلين أجانب ، وكان لابد أن تعصف بهم الرياح كما تعصف بأى أجنبى مستبد .

كان بنو أمية الأندلسيون جميعاً ممثلين للعروبة والقرشية فى الأندلس ، كانوا يمثلون العروبة لساناً وفكراً وعصبية عربية إسلامية من طبقة عالية وبفضلهم وبفضل حرصهم الشديد على العروبة والإسلام أخذ الأندلس صورة بلد عربى وإن كان معظم سكانه غير عرب من ناحية الأصول ، ولكنهم استعربوا على دين ملوكهم وأصبحوا من أشد الناس اعتزازاً بالأندلس العربى والإسلام الأندلسى ، وكانت عصبيتهم الأندلسية هذه تستلفت الأنظار وتثير الخواطر عليهم حيثما حلوا .

وابن حزم نفسه عندما يتحدث عن نفسه وأهل بيته وتربيته فى كتابه المبدع « طوق الحمامة » يصور نفسه فيه فى صورة رجل عربى نشأ نشأة أندلسية ، فهو إلى سن العشرين كان لا يحسن الصلاة حتى لقد خجل من نفسه عندما دخل المسجد مرة ، فلم يعرف كيف يصلى صلاة الجنازة لأنه فى صباه عاش حياة أندلسية إسبانية بين نساء البيت وجواريه وكلهن إسبانيات . على أيديهن تربى ، كما يقول هو بنفسه ولكنه عندما أحس بجهله بالإسلام وبالثقافة العربية أكبَّ على الدراسة بذكاء العربى ومثابرة الإسبانى فبلغ من المعرفة بالعربية والإسلام والفقه وتاريخ العرب درجة عالية ، وأصبح بذلك من مفاخر التاريخ الفكرى العربى ومن مفاخر الفكر الإسبانى كذلك ، فهو عند الإسبان مفكر وفيلسوف إسبانى وعالم بشئون الأديان يكتب بالعربية ، وهو عندنا منارة العلم العربى الإسلامى الأندلسى ، وأحسن كتاب كُتِب عن ابن حزم كتبه عالم إسبانى معاصر هو ميجل آسين بلاثيوس . وابن حزم نفسه كان من أشد الناس تعلقاً بجانبه الإسبانى ، وهو القائل :

أيَا جَوْهَرَ الصِّينِ سُحْقاً ، فَقَدْ غَنِيتُ بياقُوتَـةِ الأنْـدَلُسِ

وكتابه « رسالة فى فضل الأندلس » خير شاهد على ذلك. وهو فى نفس الوقت من أشد المتحمسين للبيت المروانى الأندلسى لا يزال يلهج لسانه بالثناء عليه ، وهو يرى أن مجد الأندلس العربى الإسلامى كان معقوداً بلواء المروانيين ، فلما انكسر اللواء انكسر الجيش كله ، وحُقَّ له أن يقول ذلك ، فقد قاله أيضاً أحد ملوك النصرانية وهو سانشو الأول الكبير ملك نَبـرَّة ، فقد هاله تدهور الأندلس السريع بعد سقوط البيت المروانى سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م . فقال ما معناه : إن الأندلسيين خيَّبوا ظنه لأن قوتهم كلها كانت فى ملوكهم.

والدور الذى قام به بنو مروان الأندلسيون فى تاريخ الإسلام عظيم ، ولكن دورهم فى تاريخ أوروبا أعظم ، فهم أسرة من الملوك والقادة القرشيين الأوروبيين . ولقد أقاموا دولتهم القرشية والأندلس قد مال ميزانه فعدلوه وحملوا لواء المجد والسؤدد والقوة ثلاثة قرون وتزيد : من ١٣٨هـ إلى ٤٢٣ هـ/ ٧٥٦ - ١٠٣١م . كلها - خلا ثلاثةً وعشرين عاماً هجرية - سنوات صعود وقوة وعزة وكرامة وعروبة وإسلام ، فقارن بذلك بنى أمية المشارقة الذين انتهى عصر قوتهم الحقيقى سنة ٩٦هـ/ ٧١٥م . بوفاة الوليد بن عبد الملك ، أى : أن عصر قوتهم لم يزد على ست وأربعين سنة هجرية (٤٥ سنة ميلادية) وانقطع الرجاء فيهم بوفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م . أى : بعد ٨٥ عاماً هجرية من قيام دولتهم ، فأين هؤلاء من بنى مروان الأندلسيين الذين ظلوا على حال القوة من ١٣٨هـ إلى ٤٢٣هـ أى ٢٨٥ سنة هجرية (٧٥٦-١٠٣١م) أى ٢٧٥ سنة ميلادية ؟ وأين منهم بنو العباس الذين قامت دولتهم سنة ١٣٢هـ ودخلت فى دور الضعف من بداية عهد المتوكل سنة ٢٣٢هـ أى قرن هجرى واحد ، وبقية تاريخهم نزع طويل طافح بالمآسى والمخازى .

ولنضف إلى هذا أن بنى أمية الأندلسيين شادوا مُلْكهم فى ثغر من ثغور الإسلام ، وأقاموا دولتهم بين فَكَّى الأسد فى قلب الغرب الأوروبى المسيحى ، وساسوا

أمورهم وشَقُّوا طريقهم بقوة وحزم وإصرار وإذا اعتبرناهم بيتاً مالكاً أوروبياً نجدهم أذكى وأقدر وأطول عمراً من معاصريهم الأوروبيين من الكارولنجيين خلفاء قارله وشارل مارتل ، والتيوتون الأوتونيين أباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، ومن بيتى هيو كابيه ، ثم أنجو ملوك فرنسا .

وفى التاريخ العالمى تحتل قريش مكاناً صدراً برسول الله ﷺ وصحبه وبالراشدين بفضل فتوحهم العظيمة فى القارات الثلاث ، وبالأمويين المشرقيين بفضل فتوحهم أيضاً ، وبالعباسيين لأنهم أنشأوا دولة غير باهرة سياسياً وعسكرياً ولكنها باهرة ثقافياً وحضارياً ، ثم ببنى أمية الأندلسيين بصفة خاصة لأنهم أنشأوا دولة أوروبية عربية مسلمة باهرة سياسياً وفكرياً تضاهى عظيمات الدول فى الغرب الأوروبى .

دَولة الأدارسَة فى المغرب الأقصىَ

وَالسّليمانيّين فى غرب المغرب المتوسّطِ :

من مأثور الإمام على بن أبى طالب قوله : السيف أنمى للعدد . يريد أن من يخوضون المعارك ويتعرضون للسيف وتصيبهم المقتلة بعد المقتلة يزداد عددهم ، وذلك صحيح تدل عليه زيادات السكان بعيد الحروب كما حدث بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية ، كأن الإنسان يشعر بغريزة المجموع أن جنسه أو قبيله يستشرى الموت فيه فيجتهد فى التعويض ، وهذا أيضاً ظاهر فى أجناس الحيوان التى يزداد إقبالها على التكاثر بعد الأوبئة والآفات .

ولا يَصْدق ذلك على قوم كما يَصْدق فى العلويين ، فإن على بن أبى طالب أنجب ما يزيد على الخمسة عشر من الذكور غير الإناث ، ولم ينجب منهم نسلاً ذكوراً إلا الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وكان نسل هؤلاء الثلاثة قليلاً ، فلما استشهد على ابن أبى طالب وتنازل ابنه الحسن وبقى الحسين ومحمد بن الحنفية ، وبدأ الصراع الدموى الطويل بين بنى أمية وبنى على ، وخاض الأمويون فى دماء الهاشميين العلويين خوضاً ، وسقط من العلويين فى المذابح العشرات ، حتى لقد قُتِل مع الحسين فى كربلاء أربعة من إخوته دون من استشهد من بنيه وبنى إخوته ، ولم يكن الحسن قد

أنجب إلا ثلاثة من الذكور ، هو الحسن وزيد وجعفر ، فما هو إلا أن استعر القتل فى آل على حتى تفجر آل الحسن تفجراً فأنجب الرجال والنساء منهم العشرات حتى غدا الحسنيون وحدهم قبيلاً ضخماً كأنهم الشعب ، ثم لم يلبث أن جاراهم الحسينيون فزادوا عليهم ، ولم تقصر بقية فروع العلوية فى ذلك ، وكانت الوقائع بينهم وبين الأمويين أولاً ثم العباسيين بعد ذلك دافعاً بالأحفاد وأحفاد الأحفاد إلى التفرق فى فجاج الأرض ، فانتشر العلويون فى كل بقاع الدنيا حتى لم يخل من رجالهم ونسائهم قطر بل بلد . وقد انقرض الأمويون الذين تجردوا لإبادتهم بانقراض بيتهم الأموى الأندلسى ، وانحصر العباسيون فى بغداد والعراق وبعض الحجاز ، ثم انقرضوا بعد ذلك فلم يبق منهم من يُذكر إلاّ فى بيت خلفائهم فى مصر .

أما العلويون الذين تجرد هؤلاء للقضاء عليهم فقد كثروا كثرة غريبة ونبضت أعراقهم فى كل ناحية واختلطوا بالناس فى كل مكان وصاهروا الناس وأصبح الكثيرون منهم من صميم أهل النواحى وجمهورها ، فاستشرت بيوتهم وتعددت أسماء أسراتهم حتى أصبح من أعسر الأمور ضبط فروعهم وإحصاء أسراتهم ، وقد أنفقتُ من الوقت شيئاً لا يصدق فى عمل شجرات أنساب لكى أحصى بيوت القرشيين التى وصلت إلى السلطان فى نواحى دولة الإسلام شرقاً وغرباً ، فترامى بى الأمر ورأيت أننى أجاوز به القصد ، وأخرج عن طوق قوتى المقصود ، فاقتصرت وإلا ما فرغت أبداً ولقد قدَّرت أثناء هذا البحث أن الدول التى أنشأها القرشيون - العلويون خاصة - فى نواحى الأرض جميعاً كبيرة وصغيرة تبلغ دون المائة ، وانتهيت بها فى الإحصاء إلى ما بعد المائتين وما بقى علىَّ كان أعظم ، ورأيت أن هذه نتيجة يتحقق بها دون حاجة إلى مزيد من الاستقصاء جانب من جوانب هذا البحث ، وهو أننا لا نعرف قبيلة من قبائل التاريخ مهما تضخم حجمها لم تنشىء من البيوت الحاكمة على مر العصور قدر ما أنشأ أبناء قريش .

والغالبية العظمى من أولئك القرشيين من بنى هاشم وأبناء على خاصة ما بين حسنيين وحسينيين وزيديين وجعفريين وعقيليين . فكأن الله زاد فى بركة المصطفى صلوات الله عليه بالزيادة فى أهل عترته حتى لم يُحرم منهم فج من فجاج أرض الله ،

ونحن لم نحص ما أنشأته قبائل من الجرمان والمغول والترك لكى نعقد المقارنة بينها وبين قريش على كبر الفرق فى الحجم واتساع البلاد وثروتها . ولكننا نقول غير مجازفين : إن قبيلاً مما خلق الله لم ينشىء من الدول قدر ما أنشأت قريش ، فلم يخل من دولهم عصر ولا مكان ، وإلى أيامنا هذه لا زال بيتان على الأقل من بيوت بنى هاشم حكاماً على شعبين من شعوب العرب المعاصرين ، هما بيت الهواشم أصحاب الأردن وبيت الشرفاء العلويين فى المغرب الأقصى .

وفى خلال النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى عندما وهن أمر الدولة العباسية وتزعزعت قواعد سلطانها بعدما كان من حرب الأمين والمأمون ، ووقوع النفور بين المأمون وأهل بغداد والعراق بعد أن ولَّى المأمون الفضل بن سهل وهو فارسى أمر بغداد والعراق وأقام هو تخوفاً على نفسه فى خراسان ، فى هذه الظروف تتابع خروج العلويين على بنى العباس ، إحساساً منهم بأن ساعتهم قد حانت .

وقبل وفاة المأمون بثلاث سنوات أى سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤م قام محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم الملقب بطباطبا ، وقد أطلق عليه هذا الاسم للكنة كانت فى لسانه فى صغره وهو حفيد إبراهيم بن الحسن بن الحسن وأيَّد الناس حول البصرة إبراهيم طباطبا هذا وانضم إليه ثائر من المتشيعين هو أبو السرايا بن منصور كبير الشيبانيين فتمكن من الانتصار على الفضل بن سهل ولكنه توفى يوم انتصاره ويقال إن أبا السرايا قتله ، فاتجه أبو السرايا لتأييد داعية آخر هو علوى الحسن بن الحسن بن زيد ابن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، واشتدت الحرب بينه وبين قواد بنى العباس وخاصة هرثمة بن أعين .

وهنا نجد العلويين يثيرون ما يشبه الزلزال تحت أقدام العباسيين ، فقد نجم منهم ثائر فى كل بلد من أقصى خراسان إلى أقصى المغرب ولم تَنْجُ المدن المقدسة بالحجاز من هذه النار ، فقام فى مكة والمدينة ثلاثة من الثائرين العلويين فى آن واحد ، وريع المأمون لكثرة خروج العلويين وتأييد الناس إياهم رغم الخسائر التى وقعت فيهم فلجأ إلى التظاهر بالرغبة فى رد الأمر إلى آل على وأمَّن علىَّ الرضا بن الإمام جعفر الصادق وزعم أنه جعله ولى عهده ، وكانت مكيدة ظاهرة انتهت باغتيال على الرضا ، واستمرار بنى العباس فى الخلافة .

وقبيل ذلك ومنذ فشل ثورتى محمد وإبراهيم ابنىَ الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، تنبه العلويون إلى أن أى محاولة لطلب الخلافة فى الحجاز أو العراق لا أمل فيها ، واتجهت أبصارهم إلى نقل مركز الدعوة والثورة إلى الأطراف ، إلى طبرستان حيث الموالون للعباسيين قليلون ، وإلى اليمن حيث لم يكن لبنى العباس من السلطان إلا ظل زائل ، أو إلى المغرب الأوسط أو الأقصى وكانا خارجين عن أراضى الدولة العباسية ، وكان سلطانها على المغرب لايتعدى مجرى نهر شلف الذى يجرى فى مجراه الأعلى من الجوانب إلى الشمال جنوبى مدينة الجزائر الحالية على وجه التقريب .

فى هذه النواحى كلها ، حيث كان الناس يتعلقون بآل البيت تعلقاً شديداً ويرون فيهم الأمل الباقى لهم من الأمن والاستقرار والحكم الصالح أنشأ العلويون أعظم دويلاتهم وأبعدها أثراً أو شرفاً فى تاريخ الإسلام ، أما الدولة الفاطمية التى قامت فى إفريقية ثم انتقلت إلى مصر بعد ذلك فلها شأن خاص ، ولهذا فستنفرد التجربة الفاطمية بفقرة خاصة بها من ذلك البحث عن قريش .

وتعتبر الدول الثلاث الكبرى التى أنشأها العلويون فى المغرب الأقصى وبلاد الديلم ثم فى اليمن أنجح تجاربهم السياسية على الإطلاق ، وأدلها على طبيعة البيت العلوى فى جملته بعد الصدمات العنيفة التى واجهته فى تاريخه السياسى الأول ، ونقصد بذلك استشهاد على بن أبى طالب وما أحاط بخلافته قبل ذلك من ظروف سيئة وعسيرة على الفهم ، ثم تنازل الحسن واستشهاد الحسين بن على وآله فى كربلاء. فهذه النكسات الثلاث أفهمت العلويين أن ما يقوله الناس فى قلب الدولة من محبتهم وتحمسهم لهم لا يمكن التعويل عليه عندما يجد الجد وينهض المُطَالب العلوى لإقامة دولته ، هنا تبتعد عنه الغالبية ولا يبقى معه إلا القليلون .

وإلى هذا اليأس من الناس يرجع ما نلاحظه من سكون العلويين من أيام عبد الملك بن مروان إلى نهاية الدولة الأموية . وانصراف بعض كبرائهم عن السياسة وتوجُّه جهودهم نحو العلم كما نرى فى حالة جعفر الصادق الذى كان أصلح العلويين للمطالبة بالخلافة فى وجه بنى العباس ، بل هو تعمد أن يعرف الناس عنه عزوفه عن السياسة عندما أحرق كتاب أبى سلمة الخلال حفص بن سليمان وزير آل

محمد وكبير دعاة العباسيين حين عرض عليه الخلافة . بل هو لَامَ ابن عمه محمد النفس الزكية عندما ترامى إليه أنه يفكر فى القيام فى وجه بنى العباس وتنبأ له بالهزيمة والموت إذ لا شيعة له ولا دعوة منظمة . والعلويون الحسينيون على أى حال ظلوا ساكنين حتى بان ضعف العباسيين وكَثُر وثوب الحسنيين فتحركوا فيمن تحرك ، ولكنهم لم يغامروا بأنفسهم مغامرة الحسنيين واتجهوا إلى الاختفاء والتنظيم السرى ، وفى طى الخفاء دبروا أمر حركتهم وأمهل كبارهم أنفسهم إمهالاً طويلاً ، فلما ظهروا ظهروا فى هيئة بالغة التنظيم وأقاموا الدولة الفاطمية .

وأما الحسنيون فكانوا أنشط وأجرأ ، فمن صفوفهم خرجت معظم الحركات العلوية التى زلزلت الأرض تحت أقدام بنى العباس ، فمنهم عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وهو عبد الله المحض وهو والد محمد النفس الزكية الذى قام على المنصور وقُتِل بالمدينة ، وإبراهيم الذى قام بعده بقليل على أبى جعفر وقُتِل فى باخمرا ، وحديث عبد الله المحض مع أبى جعفر المنصور حديث طويل فَصَّلَه الطبرى فى الجزء السابع من تاريخه ونحن نقرأه فنحس وكأننا أمام ثعلبين كل منهم أشد مكراً من الآخر . وإننا لنتعجب كيف وصل أولئك القرشيون فى الدهاء هذا المبلغ البعيد ، وكلمة واحدة من عبد الله المحض هذا تدلنا على أغوار نفسه ، فقد ظل أبو جعفر المنصور يحاوره لِيُقِر له بمكان أبنائه المختفين وخاصة محمد النفس الزكية وإبراهيم ، وكان عبد الله يفضل العذاب على أن يدل على مكان ابنيه فتضيع عليهما فرصة الخروج على بنى العباس والوصول إلى الخلافة ، وضاق به أبو جعفر فحبسه وأخذ أمواله وجعل يبيعها شيئاً فشيئاً ، والرجل مصرٌّ على صمته ، فحدّث رجل يسمى الحارث ابن إسحاق بن حنين قال : « دخلت على عبد الله بن حسن وهو محبوس ، فقال : هل حدث اليوم من خبر ، قلت : نعم ! قد أُمِرَ ببيع متاعك ورقيقك ، ولا أرى أحداً يُقْدِم على شرائه ! فقال : ويحك يا أبا حنين ، والله لو خرج بى وببناتى مسترقين لاشترينا[1] ! » .

وسوء الظن هذا بالناس وبالحظ هو الذى يفسر لنا : لماذا أبعد الحسنيون فى الرحلة

---

(١) الطبرى : ٧/ ٥٢٥ .

واختاروا أبعد المواطن عن متناول بنى العباس ليجربوا حظهم ، وكان أحسنهم نصيباً فى ذلك إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ربما لأنه اختار بلداً قصياً جداً عن بنى العباس ، ثم إن حركته قامت بين أقوام من البربر الذين طال شقاؤهم بالحروب والقلق منذ قيام الفتنة المغربية على بنى أمية ، وكانت نفوسهم تهوى إلى زعيم ذى إيمان وجاه تطمئن إليه نفوسهم ويخرجون به من متاهات السياسة ومضانك الزندقة ، فكان هذا الزعيم هو إدريس هذا ، ولم يكونوا ليجدوا له مثيلاً ، فهو من عترة رسول الله ﷺ ، وهو قد أتاهم صبياً صغيراً يحضنه ويرعاه مولى من جنسهم ويتكلم لغتهم ، وكانت دعوة هذا المولى واسمه راشد لهم أن يشاركوه فى رعاية هذا الصبى الكريم ويقوموا معه بأمره ، فعطفت عليه قلوبهم وتبنوه وأيدوا دعوته .

وكانت حاجتهم إليه مثل حاجته إليهم ، وكان هذا من أسعد اللقاءات التاريخية : لقاء طرفين كل منهما يحل للآخر مشكلته ويفتح أمامهما معاً أبواب العمل والحياة . ولو أن إدريس هذا وصل إلى المغرب فى جمع من قومه لما تيسر أمره على النحو الذى كان يسبب ما لا بد منه - بالنسبة للعرب - من اختلاف الكلمة والحسد كما حدث للقاسم الرسى بن إبراهيم طباطبا ، وهو من أحفاد إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب قتيل باخمرا سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م .

ولم يكن إدريس هو العلوى الوحيد الذى فر إلى المغرب ، فقد لحق به حسنيون آخرون فروا إلى المغرب الأقصى ، وأنشأوا فيه الدولة الإدريسية فتجمع فى هذا الصقع من بلاد الإسلام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وسليمان أخوه أو أبناء سليمان هذا ، ويقال : إن سليمان نفسه قُتِل فى معركة فخ مع من قُتِل من العلويين وأن الذين خرجوا كانوا أولاده ، ولكنهم لم يخرجوا إلى المغرب إلا بعد مقتل الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن أبى طالب ، الذى خرج على الخليفة الهادى العباسى فى ذى القعدة سنة ١٦٩هـ/ أبريل ٧٨٦م ، وقُتِل فى وادى فَخ على نحو ١٠ كيلو مترات شرقى مكة ، وكانت هذه الواقعة من أشد ما أصاب بنى هاشم وأعمقه وقعاً فى تاريخ الحركة الشيعية ، وهى التى قال فيها شاعر الشيعة :

فَلَأَبْكِيَنَّ علَى الحسَيْنِ بِعَوْلَةٍ وعلَى الحسَنِ
وعلَى ابْنِ عَاتِكة [1] الذِى وَارَوْه ليسَ بِذِى كَفَنِ
تُرِكُوا بفخ غَدْوةً فى غَيرِ مَنْزِلةِ الوطَنِ
كَانُوا كِرَاماً هُيِّجُوا لَا طَائِشِينَ ولا جُبُنْ

وقد صدق الشاعر فى البيت الأخير من قصيدته ، فإن الحقيقة هى أن الحسين بن على هذا قد أُحرِج إحراجاً شديداً ، بسبب ما كان رجال بنى العباس يفعلونه ببنى على ، فقد تنافس الناس فى الإساءة إليهم بتأليب الخلفاء عليهم ، وكان والى المدينة إذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكان قد جعل العلويين يضمن بعضهم بعضاً وفرض عليهم أن يعرضوا أنفسهم عليه كل يوم ليطمئن إلى حالهم ، كما تفعل مراكز البوليس اليوم مع المشبوهين والخارجين من السجون ، وكان أحدهم إذا غاب عن هذا العرض المشين ضمنه الحاضرون ، وكان الذى يلقاهم ليستوثق من أمرهم نائباً من نواب العامل يسمى خليفته ، وكان الحسين بن على بن الحسن الذى نحن بشأنه ويحيى بن عبد الله بن الحسن الذى سيفِرُّ إلى بلد الديلم كفيلين بالحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ، فغاب هذا الأخير ثلاثة أيام ، فأصر الوالى عمر بن عبد العزيز على إحضاره وأغلظ لكفيليه ، فضاقت نفساهما ونفوس العلويين بهذا الهوان وقرروا الخروج بمنى أو بمكة فى الموسم ، وخرج العلويون بالفعل وخلعوا طاعة الهادى العباسى فى موسم الحج سنة ١٦٩هـ ، وسيَّر الخليفة لحربهم محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، وكان من أكبر قواد الدولة العباسية .

وكانت الوقيعة بفخ ولم تكن بمذبحة دامية مثل كربلاء أو باخمرا ، ولكن صداها كان بعيداً جداً ، لأن الناس أجمعين كانوا قد ضاقوا بهذا العدوان المستمر على آل البيت والإصرار على إنزال المهانة بهم ، وقد قُتِل فى المعركة الحسين بن على بن الحسن ابن الحسن بن الحسن ونفر من آل بيته ، وجرح فى المعركة يحيى بن عبد الله بن الحسن

(١) هو : الحسين بن على قتيل فخ الذى ذكرناه فى المتن .

الذى أنشأ دولة علوية فى بلاد الديلم ، وفيها قتل أخوه سليمان وفرَّ أبناؤه إلى المغرب الأوسط ، ويقال : إن أخاهما إدريس اشترك فى الوقعة ولكننا نستبعد ذلك لأنه كان إذ ذاك صغيراً جداً ، وقتل فيها رجل من العلويين شديد السواد هو الحسن بن عبد الله الأشتر - الذى قُتِل بكابل - بن محمّد - قتيل المدينة سنة ١٤٥هـ - بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وكان يلقب بأبى الزفت لشدة سواده فهو شهيد بن شهيد بن شهيد ، وقد أحزن الناس جميعاً مقتله ، وقد حمل رأس الحسين الشهيد هذا إلى الهادى رجل من أتباعه يدعى يقطين بن موسى فنفر منه وغضب عليه وحزن على مصاب هذا المسكين [١] .

وقبل أن نمضى مع إدريس إلى مهربه نضيف ملاحظة لها أهميتها بالنسبة لما ندرسه من أمر قريش ، فإن الناس يحسبون أن ضعف بنى العباس واستبداد جندهم بهم لم يكن إلا بعد أيام المعتصم ، ولكن الحقيقة التى تتجلى للقارىء المتأمل فيما يقرأ ، هى أن تدهور الدولة العباسية ووقوع خلفائها تحت رحمة الجند يرجع إلى أواخر أيام المهدى والهادى ، وهما الثالث والرابع من خلفاء بنى العباس ، وإليك خبر يؤكد لك ما نقول.

فقد ذكر الطبرى نبأ وفاة الخليفة المهدى فى ذى الحجة سنة ١٦٩هـ ، فى ماسبذان من نواحى خراسان ، وكان معه ابنه الأصغر هارون (الرشيد فيما بعد) ، أما ولى عهده موسى الهادى فكان فى بغداد خليفة لأبيه فحار هارون فيما يفعل وخاف إن علم الجند بموت المهدى شغبوا ، ونصحه يحيى بن خالد وقال : « ولا آمن إذا علم الجند أن يتعلقوا بمحمله ويقولوا : لا نخليه حتى نُعطى (الرواتب) لثلاث سنين وأكثر ويتحكموا ويشتطوا ولكن أرى أن يوارى رحمه الله ها هنا ونوجه نُصَيْراً (أحد رجاله) إلى الهادى بالخاتم والقضيب والتعزية ... وأن تأمر لمن معك من الجند بجوائز: مائتين مائتين ، وتنادى فيهم بالقفول ، فإنهم إذا قبضوا الدراهم لم تكن لهم همة سوى أهاليهم وأوطانهم » .

وقد أراد يحيى بن خالد البرمكى أن يتخلص الخليفة من الجند فيسبقونه إلى

---

(١) الطبرى : ٨/ ١٩٢ وما بعدها .

بغداد ، فأعطاهم المال وأذن لهم فى القفول فتسارعوا إلى بغداد ، فلما وصلوا بغداد بلغهم خبر موت الخليفة المهدى وولاية الهادى ، فشغبوا على الربيع بن يونس الوزير « وأخرجوا من كان فى حبسه ، وأحرقوا أبواب دوره فى الميدان ، وحضر العباس بن محمد وعبد الملك بن صالح ومحرز بن إبراهيم ذلك ، فرأى العباس أن يرضوا وتطيب نفوسهم ، وتُفرق جماعتهم بإعطائهم أرزاقهم ، فبذل ذلك لهم فلم يرضوا ، ولم يثقوا لما ضمن لهم من ذلك حتى ضمنه محرز بن إبراهيم ، فقنعوا بضمانه وتفرقوا ، فوفى لهم بذلك ، وأُعطوا رزق ثمانية عشر شهراً ، وذلك قبل أن يقوم هارون »[1].

فانظر والله خوف رجال الدولة من الجند واستبداد الجند بهم فى أول عهد الهادى الذى نقول إنه عهد قوة البيت العباسى ، فكأننا لا نقول الحقيقة عندما نقول : إن ضعف خلفاء بنى العباس ووقوعهم تحت رحمة الجند بدأ فى أيام المتوكل ، لأن الدولة العباسية كانت ضعيفة البنيان واهية الأركان من يوم ولادتها ، وهى لم تكن دولة ذات قوة وسلطان إلا فى عهد أبى جعفر المنصور ، وبه بدأت قوتها وانتهت فى نفس الوقت ، فقارن بذلك قوة الدولة الأموية فى الأندلس وعِظَم سلطان خلفائها وقبضهم بيد حازمة على جندهم وهيبة الجند لهم . ومن هنا نستطيع القول بكثير من التحفظ إن الأمويين على الجملة كانوا أقوى على السياسة وضبط الأمور من الهاشميين جملة ، أياً كانت مواضع دولة هؤلاء وأولئك .

ونعود إلى إدريس بن عبد الله فنقول إنه هرب بعد معركة وادى فخ إلى مصر ثم المغرب متنكراً . وأبعد فى الهرب حتى وصل طنجة وكانت أبعد ما تكون من حدود دولة بنى العباس التى وقفت عند وادى شلف وكان معه مولاه راشد وكان من عظماء الموالى وأهل الصدق والإخلاص مع آل البيت ، وليس هناك ما يمنع من قبول ما يقال من أن أصله من أبناء سبى إفريقية وأنه كان يعرف لغة المصامدة وهم أعظم قبائل المغرب الأقصى .

وكانت الأحوال فى تلك الناحية من المغرب الأقصى مضطربة اضطراباً شديداً ، فإن ناحية طنجة وما حولها كانت على إسلام سنى صحيح لأنها كانت منذ الفتح

---

(١) الطبرى ، تاريخ ٨/ ١٨٧ - ١٨٨ .

الأول ثغر الغرب وباب الأندلس ، فكثر مرور العرب واستقرارهم بها ، ولكن لم يكن عليها سلطان لأى دولة إنما كان أصحاب السلطان فيها هم البربر ، ومعظمهم هنا من قبيلتى نفزة وأوربة ، وإلى جنوب سهل طنجة وسبتة كانت تقع جبال الريف وكانت تسكنها قبائل مصمودية برنسية كثيرة أقواها برغواطة وغمارة ، وبرغواطة كانت من القبائل التى أوعبت فى الفتنة المغربية وقامت على العرب وأخرجت مَنْ كان من العرب فى بلادها فى عنفوان الفتنة المغربية التى شارك فى صنعها دعاة الخارجية ما بين صفرية وأباضية .

وهؤلاء الخوارج الذين انهزموا فى قلب الدولة فطلبوا الأمان والنجاة فى أطرافها ، كانوا جميعاً أعداء لقريش ، وكانوا ينكرون ما يقوله القرشيون من أن الإمامة فيهم ، وكل زعمائهم الأُول كانوا متشددين فى إنكارهم إمامة قريش ومَثَلُهم الكبير المعروف لنا هو عبد الله بن وهب الراسبى الأزدى الملقب بذى الثّفنات ، وهو أول خليفة اختاره الخوارج أيام خروجهم على علىّ بن أبى طالب ، ومن أمثلتهم أبو راشد نافع ابن الأزرق الحنفى منشىء فرقة الخوارج المتشددة الذى أعلن الحرب على المسلمين جميعاً وأباح قتالهم بالسيف لأنهم خضعوا لسلطان الخلفاء الظلمة فأعانوهم بخضوعهم هذا على ظلمهم ، وفى رأيه أنهم كفرة حربهم حلال ، وعبد الله بن أباض التميمى منشىء فرقة الأباضية ، وزياد بن الأصفر التميمى منشىء فرقة الصفرية . هؤلاء جميعاً كانوا لا يعترفون برئاسة قريش ، وكانوا يقولون بإمامة الأصلح من المسلمين « ولو كان عبداً ذا زبيبة » ، وهذه الآراء تعجب غير العرب ممن أحرج صدورهم بنو أمية وعمالهم بسوء تصرفهم ، ولهذا فقد استجابوا لهذه الدعوات فهى تفتح لهم فى أمة الإسلام أبواباً واسعة من القوة والسلطان لا تسمح به لهم دولة الجماعة التى خضعت للسلطان الأموى والعباسى ، فأقبل على تلك المذاهب الخارجية الكثيرون منهم واعتقدوا أنها أقرب إلى روح الإسلام ، وكانت الظروف العامة فى أخريات الحكم الأموى تشجع على مثل هذا التفكير .

ولم يكن الإيمان قد استقر فى قلوب البربر على أصوله إلى ذلك الحين . فقد كانوا حديثى العهد بالإسلام ، إذ إنهم لم يدخلوا فيه إلا قبيل نهاية القرن الهجرى الأول ، ثم

جاءهم هؤلاء الدعاة بدعوة الخارجية وحق الجماعة فى أن تختار رئيسها عربياً كان أم غير عربى ، ونَجَم فى قبيلة مدغرة أو مطغرة ثائر يسمى ميسرة الفقير ، وكان طالب عالم ، ولكنه لم يُحصِّل إلا قليلاً ، وعندما قامت الفتنة المغربية تزعمها فى قومه وسار لحرب العرب ، ومات قبل أن يلقاهم ، فتولى أمرهم زعيم آخر يسمى خالد بن حميد الزناتى .

ومن مدغرة انتقلت الثورة على حكام العرب إلى برغواطة ، وكانت حلفاً بربرياً برنسياً ضخماً يسكن جبال الريف وساحل المحيط الأطلسى المعروف بتامسنا ويمتد حتى سلا وآزمور وأنفى (وهى اليوم الدار البيضاء) وآسفى ، فظهر فيهم رجل قليل العلم ذو طموح سياسى واسع ، وادعى النبوة وزعم أنه نبى مرسل يوحى إليه قرآن فى سور ، وكان اسمه صالحاً ، وقد ظهر آخر خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٧هـ وزعم أنه المهدى وأنه يظل فى قومه حتى مجىء عيسى عليه السلام ، وتبعه قومه فى نحلته هذه الغريبة التى هى من نتائج الجهل بالإسلام وما أدخله دعاة الخارجية فى عقول هؤلاء الناس من أفكار مضطربة أو مشوشة فسروها هم على هواهم ، وقد طالت رياسة صالح هذا سبعاً وأربعين سنة ، وزعم أنه صالح المؤمنين الوارد ذكره فى القرآن الكريم ، وعندما أراد أن يصير الأمر من بعده لابنه إلياس دون أن يناقشه أحد من قومه زعم أنه خارج إلى المشرق وأوصى لابنه إلياس ليحكمهم هو وأولاده حتى يعود هو إليهم فى حكم السابع من أهل بيته واختفى بالفعل وتولى أمرهم ابنه إلياس .

وصالح وإلياس هذان هما اللذان وضعا المذهب الذى عرف بزندقة برغواطة ، ويبدو أن أخبار زندقة برغواطة مبالغ فيها وأن أبناء صالح البرغواطى عدلوا عن مذهبهم واقتربوا من الإسلام الصحيح ، وإن ظلوا منحرفين ولو كانوا زنادقة تماماً حقاً لما حالفهم خلفاء بنى أمية الأندلسيون ، وقد كان بنو أمية من أكثر الدول تمسكاً بالإسلام السنى الحنيف على مذهب مالك إمام دار الهجرة . ومعلوماتنا عن البرغواطيين أتباع صالح هذا ترجع إلى تقرير عنهم وعن ديانتهم رفعه إلى الخليفة الحكم المستنصر الأموى وَافدٌ منهم على الحكم المستنصر يسمى زمور بن صالح بن هاشم بن وراد ، وقد أتانا بنص هذا التقرير أبو عبيد البكرى فى الجزء الخاص بالمغرب

من كتابه « المسالك والممالك » وأتانا به أيضاً ابن عذارى المراكشى فى البيان المغرب ؛ وابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه [1] .

ويهمنا أن نذكر أن دعوى النبوة هذه كانت بغرض جمع صفوف البرغواطيين حول صالح هذا وإقامة كيان سياسى يحكم النواحى التى ذكرناها من جبال الريف ، ولهذا فقد كان تمسك البرغواطيين بآل صالح البرغواطى شديداً ، وبفضله استطاعوا أن يسودوا منطقة الريف وريف تامسنا وبلاد غمارة التى تقع جنوبى جبال الريف وتسمى بلاد الهبط أو هبط غمارة وتشمل المجرى الأعلى لنهر سبو وفروعه الكثيرة وقد نشر البرغواطيون سلطانهم وأرهبوا من حولهم من القبائل وسادوهم وعسفوهم.

تلك كانت الأحوال من ذلك الطرف القصى من غربى بلاد المغرب حين وصل إدريس بن عبد الله مع مولاه راشد .

وفى طنجة دعا له مولاه راشد ، ولكن طنجة كانت مَعْبراً إلى الأندلس ، وكانت متجراً وملتقى قبائل تروح وتجىء ، والدعوة تحتاج إلى قرار وأهل استقرار يسمعون ويستجيبون ويتجمعون ، فتركها راشد ومضى بإدريس إلى بلدة صغيرة عند ملتقى طرق وتؤدى إليها وديان بين جبال ، والبلدة كانت من قديم الزمان مركزاً تجارياً عُرِف عند الرومان باسم Volubulis ومنه جاء الاسم العربى وليلى ، وتلك البلدة كانت المركز المدنى لجزء كبير من قبيلة أَوْرَبة ، وهى إحدى القبائل البرنسية الكبيرة التى كان لها شأن كبير فى الفتح الإسلامى ، فقد قاد ملكها كَسِيلة المقاومة ضد الإسلام أول الأمر ثم أسلم وحالف الوالى دينار أبا المهاجر .

فلما عُزِل أبو المهاجر وجاء عقبة بن نافع أساء معاملته فانتفض عليه ، وألب عليه القبائل ، وخاض مع المسلمين معركة تهودة التى استشهد فيها عقبة سنة ٦٣هـ . ولكن المسلمين عادوا فقتلوا كسِيلة وانتصروا عليه بقيادة زهير بن قيس البلوى ، وعلى إثر هذه الوقيعة تحطمت قوة أَوْرَبة فى المغرب الأوسط وبقى لها فرع كبير حول

---

(١) انظر ابن خلدون : العبر ٦/ ٢٠٧ - ٢٠٨ .

وليلى فى جنوبى جبال الريف إلى جوار منازل قبيلة غمارة ، وكانت غمارة قبيلاً مصمودياً عظيماً يسكن جنوبى جبال الريف وينساح فى السهول جنوبها فيما يُعرف ببلاد الهبط أو هبط غمارة . وغمارة وأَوْرَبة هما اللتان حملتا عبء دولة الأدارسة . وفى غمارة تنبأ أنصار رجل يسمى حاميم بن عبد الله بن جر بن عمر بن زحفو بن آزروال سنة ٣١٣هـ / ٩٢٥م. وقد قضى على فتنته المرابطون ، وقد اشتهرت القبيلة بالسحر والساحرات .

لم يَطُلْ انتظار إدريس وراشد فى وليلى لأن رؤساء أَوْرَبة التفوا حول إدريس وتيمنوا بنسبه الشريف ، وقد علا شأن أَوْرَبة بهذا التأييد فسارعت غمارة وانضمت إليها ، وكان الغماريون أكثر عدداً من الأوربيين ، وقد اشتد بهم ساعد إدريس .

وإلى هنا نجد إدريس بن عبد الله بن الحسن هاشمياً منفرداً بين البربر ، فلا نسمع بانضمام عرب إليه ، حتى ابن عمه سليمان وأولاده الذين نزلوا ناحية تلمسان لم ينضموا إليه ، إلا حين غزا بلادهم وأقرهم على ما فى أيديهم .

كان لتلك البداية أثر بعيد فى مستقبل الدولة الإدريسية ، لأن إدريس وآله - بحكم الضرورة - كان لابد أن يعتمدوا على البربر ويصاهروهم ويندرجوا فيهم ، ويصبحوا وكأنهم منهم وإن كان الأدارسة رؤساءهم ، ونتيجة لذلك لم تصبح الدولة الإدريسية دولة عربية وسط البربر ، كما كانت دولة بنى أمية الأندلسيين دولة عربية فى محيط إيبيرى ، فارتبط البيت الإدريسى بالناس ، وصار لإدريس أولاد كثيرون من نساء بربريات من مختلف القبائل .

وقد أبدى إدريس نشاطاً عظيماً عندما أدرك سن الرشد وتولى الحكم بنفسه ، فتجرد لحرب الزنادقة ومن بقى على الكفر من نواحى شمالى المغرب الأقصى وإنشاء دولة كبيرة وأظهر براعة كبيرة فى الحروب كان الحكم فيها جماعياً ، أى : أن إدريس كان لابد أن يشاور الناس ويأخذ برأيهم ولا يخالف أقوالهم ، ولم يقع فى الخطأ الذى قصم ظهر معظم الدويلات المغربية وهو الاشتطاط فى جمع الضرائب ، وما دام كل رجال إدريس من البربر وكذلك جنوده فإنه لم يفكر فى أن يجبى منهم إلا الشرعى والمعقول من الجبايات ، فرضى الناس عن الحكم ونبتت فى قلوبهم محبته وعلا أمره ،

وقامت دولته فى شمال المغرب الأقصى عربية اللسان والرياسة ، بربرية البنيان ، وإلى هذا ترجع قوتها .

فهذه الدولة كانت دائماً دولة صغيرة المساحة نسبياً ، وكانت كذلك متواضعة مالياً، ولكن رصيدها من محبة الناس كان عظيماً ، وزاد فى صلابة تكوينها ، أنها كانت دولة سُنية يُقضى فى بلادها بمذهب مالك ، وهذا طبيعى لأن العلويين أنفسهم لا يكونون شيعة بل الشيعة أنصارهم ، وهذه السنية كانت كذلك من عمد قوة دولة الأدارسة . وقد حكم إدريس الأول هذا فترة قصيرة : من ٤ رمضان سنة ١٧٢ هـ إلى أول جُمادى الآخرة سنة ١٧٧ هـ . ولكنه وضع أساس دولة قرشية هاشمية فريدة فى بابها ، فهى دولة عربية هاشمية لا نسمع عن أمرائها ظلماً أو تعدياً أو طمعاً فى مال أحد أو قتلاً غادراً لرجال دولتهم ، ثم هى كذلك جماعية فى رياستها ، وربما كانت دولة الأدارسة أقرب دولة إلى الإسلام « بعد الراشدين » إلى المثال الإسلامى الصحيح .

وقد مات إدريس فى ريعان شبابه ، مات فجأة وربما يكون قد مات بالسم على يد رجل دسيس عليه من العباسيين ، ولا يصح أن يقال إن هذا الدسيس كان مرسلاً من قِبَل إبراهيم بن الأغلب ، لأن ولاية إبراهيم بن الأغلب لم تبدأ إلا سنة ١٨٤ هـ .

وليس أدل على تعلق الناس بهذا البيت الإدريسى من أن رجال دولته سعدوا عندما أبلغهم راشد أن إدريس ترك جارية من جواريه « وتسمى كنزة » حاملاً فاجتمع رأيهم على أن ينتظروا بالجارية حتى تلد ، فإن ولدت ذكراً بايعوه ، وبالفعل وضعت كنزة ذكراً فسموه إدريس بن إدريس ، وكل ذلك بإرشاد راشد الذى جمع رؤساء البربر حوله ، وعندما مات راشد سنة ١٨٦هـ ، ثبت القوم على ولائهم للصبى الهاشمى العلوى ، وتولى رعايته شيخ من شيوخهم يسمى أبا خالد بن يزيد ابن العباس العبدى ، وعندما بلغت من إدريس الحادية عشرة بايعوه البيعة الثانية وأعلنوه أميراً . وكان ذلك سنة ١٨٨ هـ .

ومما يدل على جماعية الرياسة فى هذه الدولة قول ابن خلدون : «ولم يزل كذلك إلى

أن بايعوا لإدريس فقاموا بأمره وجددوا بأنفسهم رسوم الملك بتجديد طاعته وافتتحوا بلاد المغرب كلها واستوثق لهما الملك بها »[1]. وواضح هنا أن إدارة الدولة ورياستها كانت جماعية ، ولم يظهر الضعف فى هذه الدولة إلا إثر قدوم نفر من عرب الأندلس إلى وليلى ودخولهم فى خدمة إدريس وكانت قد أوفت سنة على إدارة راشد ، واستطاع أن يدبر أمر نفسه فاستوزر عربياً يسمى مصعب بن عيسى الأزدى ، ولم يلبث أبو خالد بن يزيد بن العباس العبدى الذى حمل عبء الدولة سنوات طويلة أن قُتِل وانفرد هذا الأزدى بالوزارة وتكاثر العرب فى حاشية إدريس ورجاله ، فاتخذ منهم بطانة برئاسة مصعب بن عيسى الأزدى الذى يُلقب بالملجوم (ولا زالت أسرة الملجوم باقية فى المغرب الأقصى إلى اليوم) .

وقد ساعد هؤلاء العرب على استكمال الطابع العربى لهذه الدولة، ومن حسن الحظ أن عددهم لم يزد على خمسمائة فبقى البربر على مراكزهم فى دولة إدريس واستمر تأييدهم لها ، وعلى الرغم مما يقوله ابن خلدون أن إدريس الثانى «اعتز بهؤلاء العرب واستفحل بهم سلطانه»[2] إلا أننا لا نجد لذلك صدى فى سير الأمور فى الدولة فيما عدا مقتل إسحاق بن إبراهيم رئيس أوربة ، وربما يكون للعرب دخل فيه ولكننا لا نستطيع تأييد ذلك فربما كان مقتله على يد الغماريين لأن غمارة ستفرض من ذلك الحين سلطانها على دولة بنى إدريس ، وابن خلدون نفسه يقول : إن دولة الأدارسة هى غُمارة .

على أى حال ، نجد إدريس الثانى هذا يواصل جهود أبيه فى حرب الزنادقة ومن لم يسلم من البربر حتى جعل شمالى المغرب الأقصى منطقة إسلام ، ثم اختط مدينة فاس فى سهل يسمى تكزاز - على نهر فاس المتفرع من سبو - وأقام هذه المدينة فى موضعها الراهن فى ذلك السهل بين جبلى زرهون وتلاغ بادئاً بعدوة الأندلس على إحدى ضفتى النهر سنة ١٩٢هـ . ثم بنى فيها مسجد الشرفاء ثم نشأت فى عصره عدوة القرويين وبنى فيها مسجد القرويين ، ومن العدوتين تكونت فاس تلك المدينة

---

(١) ابن خلدون ، العبر : ٤/ ١٣ .
(٢) نفس المصدر ٤/ ١٤ .

العظيمة التى أصبحت منذ إنشائها قاعدة من قواعد الحضارة العربية الإسلامية فى المغرب ، وهذه ثانى مدينة باقية ينشئها الهاشميون ، الأولى هى بغداد والثانية هى فاس، وقد قدِّر لفاس من طول العمر والازدهار ما قدر لبغداد : هذه فى المغرب وتلك فى المشرق ، والاثنتان إلى يومنا هذا من عظام مدن الدنيا .

والحق أن خريطة الدنيا لا تزال تحمل أعلام العمران القرشى فيما أنشأه القرشيون ما بين أُمويين وعباسيين من مدن الأندلس حيث نجد مرسية والمرية ومدينة سالم وبلد وليد وكلها منشآت نشأت فى ظلال حكم بنى أمية الأندلسيين ، إلى جانب ما عمروه من قديم المدن مثل قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ، وفى المغرب نجد فاساً هذه ثم تيطاوين أو تطوان وحجر النسر ، وقبل ذلك القيروان وتونس وبعدها المهدية - من إنشاء الفاطميين - ثم الفسطاط ومنشئها عمرو بن العاص القرشى والقاهرة وعشرات المدائن غيرها ما بين مستحدث وجديد ، وإذا كنا نتكلم عن كبار الدول التى أنشأتها قريش فلابد أن نذكر المدن أيضاً ؛ لأن المدن مركز عمران وإشعاع حضارى ، وفى هذا المجال لا تزال فاس مدينة المولى إدريس تتألق إلى يومنا هذا واحدة من أجمل مدائن الدنيا وأحفلها بتاريخها العلمى والحضارى .

وقد سبق أن ذكرنا تعمير قريش لمكة على يد قصى بن كلاب ، وكيف أصبحت على يد القرشيين أعظم مركز عمرانى فى الجزيرة العربية ، وعندما هاجر رسول الله ﷺ النبى القرشى إلى المدينة وجدها سهلاً فسيحاً بين حرتين تتناثر فيها منازل القبائل مثل يثرب والسُّنْح وقباء ورابخ فأصبحت فى عصره المبارك مدينة واحدة تمدنت وعظمت وأصبحت قاعدة أمة الإسلام التى ملأت فيما بعد طباق الأرض إسلاماً ونوراً وعلماً ، ولا زالت مكة والمدينة إلى يومنا هذا من أعاظم بلاد الدنيا وهى أكرمها على الله وأحبها إليه وإلى الناس، والفاتحون من القرشيين هم الذين اختطوا البصرة والكوفة والفسطاط ، وبنو العباس بنوا الهاشمية[1] ، وواسط بُنِيت على يد الحجاج أيام بنى أمية ، فأى قبيلة هذه قريش التى قُدِّر لها أن تنشىء على وجه الأرض من

---

(١) الهاشمية : مدينة بناها أبو العباس السفاح بالقرب من الكوفة . ابن خلكان فى وفيات الأعيان فى ترجمة معن بن زائدة [المراجع] .

الدول ومراكز العمران ما لم تنشئه عظام الدول ، هذا إلى ما شَرفت قريش به من نزول القرآن الكريم بلسانها العربى المبين ، وكان لها من فضل فى النهوض بهذا اللسان العربى المبين قبل الإسلام وبعده ، وهى أيضاً التى طورت الكتابة العربية من الرسم السابق لها الذى نشأت به فى شمال الجزيرة إلى رسمها الذى كُتِب به القرآن الكريم .

وبعد أن أتم إدريس إنشاء فاس ومسجديها : الشرفاء ثم القرويين استمر فى جهاده لتوسيع رقعة الإسلام السنى الصحيح فى المغرب ، فحارب برغواطة وغزا بلادها وكسر ظهر زندقتها ، وردَّ الضالين من أهل برغواطة وغمارة إلى الإسلام ، ثم مضى إلى غربى المغرب الأوسط حيث كان أبناء عمومته أبناء سليمان بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب قد أنشأوا دويلات صغيرة فى إقليم تلمسان وما حولها ، فأدخل تلمسان ونواحيها فى دولته دون أن يمسَّ أصحابها من بنى عمومته بسوء ، فاشتد ساعدهم وقامت دولهم فى المغرب الأوسط ثم عاد إلى فاس ثم اتجه بغزواته إلى الجنوب وأوغل فى بلاد جنوبى المغرب الأقصى حاملاً لواء الإسلام والعروبة ، وعاد إلى تلمسان حيث بنى جامعها الباقى إلى اليوم ، وهو من أجمل مساجد الإسلام .

يقول ابن خلدون : « ثم خرج غازياً المصامدة سنة سبع وتسعين (ومائة) فافتتح بلادهم ودانوا بدعوته ، ثم غزا تلمسان ، جدّد بناء مسجدها وأصلح منبرها ، وأقام بها ثلاث سنين وانتظمت كلمة البرابرة وزناتة ومحا دعوة الخوارج منهم ، واقتطع المغربين عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى إلى شلف ، ودافع إبراهيم بن الأغلب عن حماه بعدما ضايقه بالمكادة ، واستقاد الأولياء واستمال بهلول بن عبد الواحد المطغرى بمن معه من قومه عن طاعة إدريس إلى طاعة هارون الرشيد ، ووفد عليه بالقيروان ، واستراب إدريس بالبربر فصالح إبراهيم بن الأغلب وسَكّن من غَرْبه ، وعجز الأغالبة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة ودافعوا خلفاء بنى العباس بالمعاذير بالغضِّ من إدريس والقدح فى نسبه إلى أبيه إدريس بما هو أَوْهَى من خيوط العنكبوت ، وهلك إدريس سنة ثلاث عشرة ومائة ، وقام بالأمر من بعده ابنه

محمد[1].

وابنه محمد هذا تولى الإمامة فى ربيع الأول ٢١٣هـ وأقدم لأول ولايته على عمل سياسى لم يسبق إليه سابق قبله ، أو يلحق فيه لاحق بعده ، ويقول إنه عمله بنصيحة جدته كنزة : لقد قسم بلاد دولته بين إخوته إقطاعيات أو ولايات ، وكل أخ ينفرد بالسلطان فى ولايته ويتصرف فيها تصرف صاحب الملك فى ملكه باقياً على الولاء لأخيه الإمام صاحب فاس ، وهو مسؤول عن كل شىء فى ولايته ولا يلزم إلا بأداء جانب من الجبايات إلى أخيه ، ونحن لا نعرف شيئاً عن تفاصيل هذا التقسيم الذى اعتبره الناس فى أيامه مُضْعفاً للدولة ومفرقاً لأمرها ، وربما كان هذا صحيحاً ، ولكن أصح من ذلك أنه إذا كان قد أضعف سلطان الدولة المركزية فى وقت كانت الدول تعتمد فيه أولاً وآخراً على السلطان المركزى ، ولكنه فى واقع الأمر زاد ارتباط الناس بهذه الأسرة العلوية ، لأن الإمام محمد بن إدريس لم يكن له جيش مرتزق ، وكان اعتماده على جند البربر من أهل القبائل وكذلك كان إخوته الذين فرَّقهم ، فنزل كل منهم بين القبائل التى تولى أمر ناحيتها واعتمد عليهم وصاهرهم ، وأصبح هو وأهل بيته ومن لحق بهم عرباً قرشيين متبربرين محتفظين بعروبتهم ولغتهم وعاملين على تعريب النواحى التى نزلوا فيها ، وهذا كله مدَّ للبيت الإدريسى جذوراً طويلة فى كل نواحى المغرب الأقصى ، لأن الإخوة الذين فرَّقهم فى النواحى كانوا ثمانية ، ونواحيهم تشمل المغرب الأقصى كله من سبتة وطنجة إلى بلاد السُّوس الأقصى جنوبى المغرب الأقصى حتى تخوم الصحراء ، ومن المحيط الأطلسى إلى نهر المولوية ، وقد ترك أبناء عمه أولاد سليمان بن عبد الله على نواحيهم فى المغرب الأقصى فيما يلى بلاده شرقاً .

وقد رحبت كل ناحية ومن فيها من القبائل بمن وفد إليهم من أهل البيت ، فإن الولاة الجدد لم يذهبوا عمالاً معهم جند وحرس بل نزلوا فى القبائل وصاهروها واعتزوا بأهلها واعتز بهم أهلها ، وبدأت عملية اختلاط أو ميتامورفوزيس علوية بربرية فريدة فى بابها ، ونحن نستبين هذه النتيجة من وجود الأسر الكثيرة التى تنتمى

(١) ابن خلدون تاريخ ٤/ ١٤ .

إلى بيت بنى إدريس فى كل نواحى المغرب ، ونحن لا نسمع بأن أى قبيلة من القبائل رفضت العلوى الإدريسى الذاهب إليها ، بل قبلهم الناس طواعية . ولم يكن الكثير من هذه النواحى داخلاً فى نطاق الدولة الإدريسية إلا بالاسم والطاعة المعلنة تبركاً بآل البيت ، فزادت هذه الطاعة ظهوراً وعمقاً ، فكل ناحية اعتبرت واليها أميرها وأخلصت له إلى درجة أن بعض الإخوة أحب أن ينفصل عن أخيه ويستقل نهائياً ، وأيَّدته قبائل الناحية فى ذلك .

ولكن كل هذه المحاولات فشلت وبقيت هذه الدولة العلوية وكأنها اتحاد إمارات علوية ، أو كأنها دولة إقطاعية واسعة إمامها علوى وأمراء الإقطاع فى النواحى علويون . ونظراً لكثرة محاولات الإخوة الانفصال عن فاس وامتناعهم عن إرسال جانب من جباياتهم إلى الحكومة المركزية ، فقد ظلت الدولة الإدريسية ضعيفة عسكرياً ومالياً فى عاصمتها ونواحيها ، ولكنها قوية من حيث التحام الحاكم بالمحكوم فى بلادها ، وتفرُّق السلطة بين الوالى أو الإمام العلوى ورؤساء القبائل فى كل ناحية .

وبين أيدينا الآن كتب كثيرة عن فروع البيت الإدريسى فى المغرب الأقصى وغربى المغرب الأوسط ، وهى لا تُحصى كثرة ولا بيت منها كان خميرة تعريب وإسلام سنى صحيح وتمسُّك بالعروبة واعتزاز بها ، وهذا توفيق من الله فى أداء الرسالة الإسلامية والعربية عظيم لم يوفق إليه بيت حاكم إسلامى ، وأذكر هنا كيف كان خلفاء العباسيين يستهلكون أنفسهم فى حرب إخوتهم وأعمامهم الخارجين عليهم ، الساعين فى القضاء عليهم وكل منهم يعتز على أخيه أو ابن عمه وبجند مرتزق ، ويكفينا أن نذكر هنا حالة الأمين والمأمون العباسيَّيْنِ التى أحدثت صدعاً لم يُرأب قط ، وانتهت آخر الأمر بأن جعلت السلطان فى دولة بنى العباس كلها للجند التركى المتغلب ، ومما يحزن النفس أن هذا تم على يد خليفة عربى عباسى هو المعتصم .

وفى دولة الأدارسة لا تسمع بمثل هذا التصدع وحروب الإخوة والأعمام إلا فيما ندر ، لأن هذا البيت الهاشمى العلوى عندما اعتز بمن نزل فيهم من قبائل البربر ،

وجد عندهم من المحبة والتأييد ما أغنى رجاله عن التناحر فيما بينهم على السلطان المركزى ، ولم يصابوا بآفة استخدام الجند المرتزقة فما كان لهم سبيل إليه بحكم اعتزازهم بالبربر وهم مسلمون أحرار لا يقاتلون مرتزقين ، قد يقاتلون عن عصبية ولكنهم لم يقاتلوا فى العصور الإسلامية عن ارتزاق ، وكان اعتزاز البربر بهم مغنياً لهم عن طلب الترف المسرف الذى يؤدى إلى فساد النفوس .

وظل الأدارسة رغم علو المكانة يعيشون عيش من معهم وحولهم من البربر ، وكانت جماعية الحكم فى دولة الأدارسة وما تفرع منها حاميةً البيتَ من الفساد ، فما من رجل منهم مال إلى متاع الدنيا فى إسراف إلا عزلوه ، وأكبر مثال لذلك ما كان من أمر يحيى بن يحيى بن محمد بن محمد بن إدريس الذى تولى الإمامة حوالى سنة ٢٤٤هـ « فأساء السيرة وكثر عيبه فى الحرم وثارت به العامة لمركب شنيع أتاه . وتولى كِبْر الثورة عبد الرحمن بن أبى سهل الخزاعى وأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلسيين ، فتوارى ليلتين ومات أسفاً لليلته ، وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس ، وبلغ الخبر فى شأن يحيى إلى ابن عمه على بن عمر صاحب الريف ، واستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر والموالى فجاء إلى فاس ودخلها وبايعوه ، واستولى على المغرب » [ابن خلدون ، العبر ٤/ ١٥] .

ويلاحظ القارىء هنا كيف أن أهل البلد ثاروا على المفسد المنحرف وطردوه ، ثم إن أهل الدولة من العرب والبربر والموالى « هم الذين استدعوا ابن عمه على بن عمر ابن إدريس الثانى وولوه مكانه ، مما يدل على جماعية الحكم ، وقد انتقلت الإمامة الإدريسية بهذا من فرع إلى فرع دون طول لجاجة أو حرب أهلية» ، ونتابع روايتنا لعبارة ابن خلدون ، ففيها لمحات وإشارات تعيننا على مزيد من الفهم لطبيعة هذه الدولة الإدريسية ، قال بعد ذكر تولية على بن عمر « إلى أن ثار عليه عبد الرازق الخارجى . خرج بجبال مديونه ، وكان على رأى الصفرية فزحف إلى فاس وغلب عليها ففرَّ إلى أوْربة ، وملك عبد الرازق عدوة الأندلس ، وامتنعت منه عدوة القرويين وولوا على أنفسهم يحيى بن القاسم بن إدريس ، وكان يُعرف بالعدَّام» وهنا أيضاً نلاحظ أن الناس أنفسهم هم الذين استدعوا يحيى بن القاسم بن إدريس (وكان

يلى طنجة وسبتة وقلعة حجر النسر وتطوان من أيام أقطع جده محمد بن إدريس هذه الولاية لأخيه القاسم) .

« فجاءهم فى جموعه وكان بينه وبين الخارجى حروب ، ويقال إنه أخرجه من عدوة الأندلس واستعمل عليها ثعلبة بن محارب بن عبد الله / الأزدى / وكان من أهل الربض بقرطبة ، من ولد المهلب بن أبى صفرة ثم استعمل ابنه المعروف بعبود من بعده ، ثم ابنه محارب بن عبود ، بن ثعلبة ، إلى أن اغتاله الربيع بن سليمان سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وقام بالأمر مكانه يحيى بن إدريس بن عمر صاحب الريف . (وهكذا انتقلت الإمامة من بيت القاسم بن محمد بن إدريس واستقرت فى بيت عمر ابن إدريس دون حروب) ، وهو ابن أخى على بن عمر . فملك جميع أعمال الأدارسة وخُطِب له على سائر أعمال المغرب وكان أوسع بنى إدريس مُلكاً وأعظمهم سلطاناً وكان فقيهاً عارفاً بالحديث ولم يبلغ أحدٌ من الأدارسة مبلغه فى السلطان والدولة»[1].

وهكذا ورغم تنقل الملك من فرع من فروع البيت الإدريسى إلى فرع ، نجد أن هذا البيت يزداد قوة وثباتاً ، لأنه فى الحقيقة يعتمد على الأمة المغربية ، فهى التى ترعى هذا الملك الإدريسى وتحافظ عليه لأن البيت الإدريسى احتفظ بعروبته ولكنه اختلط بالناس وصاهرهم واعتمد عليهم واعتز برأيهم ، فأصبح بيتاً محلياً قومياً ، وإلى هذا يرجع طول عمره وبُعْد تأثيره ، فما من بيت حاكم إسلامى حكم فى مصر من الأمصار وكان له الأثر البعيد فى التعريب ونشر الإسلام السنى ما كان لبيت الأدارسة هذا .

وفى أواخر القرن الهجرى الثالث «سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م » قامت الدولة الفاطمية فى إفريقية (وهى ما يُعرف اليوم بتونس وإقليم طرابلس من أقاليم ليبيا وإقليم الزاب وهو شرقى الجمهورية الجزائرية إلى نهر شلف مجتمعة فى وحدة سياسية واحدة تُعرف بإفريقية) ، والدولة الفاطمية دولة هاشمية قرشية أخرى ، ولكنها كانت تختلف عن الدولة الإدريسية اختلافاً تاماً كما سنرى ، وكان فى خلفائها طموح إلى ملك المغرب كله ، فاستعانوا بقبائل من صنهاجة المغرب الأوسط ، لكى يمدوا سلطانهم حتى بلغوا المغرب الأقصى ، وهنا بدأ الصراع بينهم وبين الأدارسة .

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ص ١٥، ١٦ .

وكانت بداية الصراع أن زحف رجل من صنائع الفاطميين يسمى مصالة بن حبوس كبير قبيلة مكناسة وصاحب تاهرت على المغرب الأقصى واقتحمه على يحى ابن إدريس بن عمر بن محمد اقتحاماً قبلياً عنيفاً سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م وهزم يحيى بن إدريس وانتهى الأمر بيحيى هذا إلى قبول الدخول فى طاعة عبيد الله المهدى ، وانتهى الأمر به بعد مكابدة أهوال إلى خروجه وبقية آل بيته إلى قلعة حجر النسر جنوبى بصرة المغرب فى جبال الريف سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م . وهنا ينتهى الدور الأول من تاريخ الأدارسة ، وهو دور طويل بدأ سنة ١٧٣هـ أى أنه استمر ١٤٤ سنة هجرية هى أطول من عمر الدولة الأموية المشرقية بكثير ، فإن هذه لم تَـدُمْ أكثر من ٩٢ عاماً هجريـاً ، وهذه الفترة أيضـاً أطول من عصر القـوة فى عمر دولة بنى العباس ، وهو لا يزيد على مائة سنة .

الدّور الثّانى مِن تاريخ الأدارسَة :

ولكن الدولة الإدريسية عادت مرة أخرى إلى الظهور ، فإن مَنْ تجمعوا من الأدارسة فى قلعة حجر النسر بزعامة بيت مشهور منهم يُعرف ببيت بنى محمد تمكنوا من العودة إلى السلطان فى شمال المغرب الأقصى ، ودخلوا فى صراع طويل مع الفاطميين مرة ومع الأمويين الأندلسيين مرة أخرى ، حتى انتهى عمر دولتهم السياسية نهائياً على يد المنصور محمد بن أبى عامر المستبد بأمر الخليفة الأموى القرطبى فى نهاية القرن الرابع الهجرى ، وبذلك تكون الدولة الإدريسية قد عمرت فى المغرب حوالى ٢٢٠ سنة ، ولم تصل دولة مغربية إلى هذا العمر قبل العصر الحديث .

وإذا نحن ذكرنا أن دولة بنى أمية الأندلسيين كانت تحكم الأندلس ، فى حين أن دولة الشرفاء الأدارسة حكمت المغرب الأقصى ، وأنهما تعاصرتا ردحاً من الزمن طويلاً ، تبينا أن هاتين الدولتين القرشيتين : واحدة أموية عبشمية ، والثانية هاشمية علوية قد قدَّمتا للإسلام والعروبة أجلَّ الخدمات ، وقد تعاصرت الدولتان خلال النصف الثانى من القرن الهجرى الثانى ، ثم خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين فكان ذلك خيراً للإسلام وبركة ، لأن الدولتين جهدتا فى الدفاع عن الإسلام :واحدة منهما وقفت كالطود الشامخ أمام ضغط المسيحية ، والثانية أمام مذاهب الزندقة

والانحراف عن الإسلام فى المغرب ، وعند التأمل العميق يتبين لنا أن الأندلس الأموى القرشى أنفق حياته فى الذياد عن نفسه ، ولكنه فى نفس الوقت كان يذود عن الإسلام فى الأندلس ، ويحول بين طوفان النصرانية الغربية والتدفق على الأندلس .

أما دولة الأدارسة فقد استهلكت نفسها فى نشر الإسلام فى المغربين الأقصى والأوسط ، ووُفِّقت فى المحافظة على سنية الإسلام المغربى ، فلولا دولة الأدراسة لما كان هناك سنة وجماعة فى المغرب الأقصى بل فى المغرب كله ، لأن الإسلام السنى فى إفريقية تمكَّن من طرد المذهب الشيعى ودولته من بلاد إفريقية وإعادتها إلى السنة المالكية بعد أن انتقل الفاطميون إلى مصر ، وقد كانت عودة السنة والجماعة إلى إفريقية والمغرب الأوسط على يد بنى زيرى الصنهاجيين خلفاء الفاطميين فى المغرب أولاً ، ثم أعداؤهم فيه بعد ذلك عملاً فاصلاً فى تاريخ المغرب كله ؛ لأن ذراع السنة امتد من إفريقية حتى التقى بذراع السنة فى المغرب الأقصى ، والاثنان معاً أكملا عودة المغرب الأوسط إلى مذهب السنة .

وبذلك عادت وحدة الإسلام المغربى من بلاد ليبيا إلى ساحل المحيط ونازلاً فى الصحراء إلى بلاد إفريقية المدارية والاستوائية ، وهذه حقيقة من أعظم حقائق التاريخ الإسلامى ، لأن المغرب بهذا أصبح جناحاً قوياً للسنة والجماعة فى الغرب وخاصة بعد أن انتهى أمر الدولة الفاطمية فى مصر وعادت مصر إلى السنة ، فاستقام أمر السنة ووحدة الإسلام من حدود العراق إلى المحيط الأطلسى ، ومثل هذه النتيجة الباهرة لم يوفق إليها أهل الإسلام فى المشرق ، فظلت كتلة الشيعة الصماء فى إيران تقسم وحدة المشرق الإسلامى وتهدده بأشد المخاطر .

والإسلام المغربى بحربه مع الزندقة والانحراف ثم نشره الإسلام فى نواحى المغرب وخاصة فى قلب بلاد المصامدة فى جبال درن وبلاد السوس ، صان وحدة الإسلام كله ، والفضل فى ذلك لعمل هاتين الدولتين معاً « الأندلسية والإدريسية » وثبتت أقدام الإسلام فى الطرف المغربى القصى لدولة الإسلام ، وإذا كان الأندلس قد سقط فى المعركة فلأن أهله ألغوا الخلافة القرطبية بقرار أحمق اتخذه أهل قرطبة

برياسة شيخهم أبى الحزم ثم ابنه أبى الوليد بن جهور سنة ٤٢٣هـ / ١٠٣١م بإلغاء الخلافة وإخراج بقية الأمويين من بلادهم ، بدلاً من اختيار أموى صالح للرياسة وتأييده والوقوف معه لتنهض الدولة الأموية ، وهى رمز الوحدة والقوة من جديد ، ولكن هكذا كان ولا سبيل إلى ردِّ ما فات .

ومن يوم زوال الخلافة القرطبية القرشية لم تقم للأندلس قائمة ، كأنما انقصم ظهره ، وبالفعل كان الأمويون ظهر الأندلس الإسلامى وعموده الفقرى ، فلما انكسر لم يعد فى العودة إلى سابق القوة - بل البقاء - أمل ولكن الأندلس الإسلامى عندما زال واندثر كان قد قام بوظيفة كبرى للإسلام كله ، لقد حمى الإسلام المغربى حتى ثبت واستقر ولم يعد إلى زواله من سبيل ، وبعد سقوط الأندلس بدأت فعلاً معركة المغرب مع النصرانية ، ولكن إسلام المغرب كان قد استقر وقَوِى عوده فاستطاع أن يتحمل الصدمات النصرانية الغربية وحده ، وهكذا بتدبير خفى لطيف من الله سبحانه تعاون بنو أمية وبنو هاشم على صيانة الجناح الغربى لدولة الإسلام وحمايته من العدوان الغربى المسيحى ، وبالفعل لم تكد معركة الأندلس تقارب نهايتها بعد محاولات بنى مرين لإنقاذ غرناطة حتى بدأ الهجوم على المغرب ، وقد قادت ذلك الهجوم إسبانيا والبرتغال .

ونكتفى بهذا القدر عن دولة الأدارسة فليس هذا تاريخاً لها ، وقد رويته كاملاً فى إيجاز فى التاريخ العام للمغرب الإسلامى الذى أعان الله على الفراغ منه ، وأظن أننى بيَّنت - بما يتفق وحجم هذا الكتاب وغايته - الدور العظيم الذى كان لهذا البيت القرشى الإدريسى الهاشمى فى بناء الجناح الغربى لدولة الإسلام . وهو كما رأينا دور جليل يُعيننا على ما نحن بصدده من تقدير دور قريش فى التاريخ الإسلامى والتاريخ العالمى جميعاً ، وننتقل الآن إلى دور آخر لقريش .

الدّول العَلوية من بَنى سُليمان بن عَبد الله المحض

فى المغرب الأوسَط :

كان المظنون إلى حين قريب أن هجرة إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن

على بن أبى طالب إلى المغرب الأقصى كانت حدثاً فريداً منقطعاً بذاته وإن قيام الدولة الإدريسية فى المغرب الأقصى كان نتيجة لانتساب راشد مولاه إلى البربر فيقال : إنه هرب بإدريس إلى بلاد قومه ، ولكن قراءة ثانية لما بين أيدينا من النصوص تدل على أن المغربين الأوسط والأقصى كانا متّجه أبصار العلويين بعد معركة وادى فخ سنة ١٦٩هـ ، فهذان المغربان كانا خارجين عن دولة العباسيين التى وقفت عند حدود ولاية أفريقية كما ذكرنا ، فلا حرج على أىٍّ طالب للسطان أن يجرب حظه فى أى موضع شاء وراء ذلك غرباً ، فهو لا يكون بهذا بمنزلة الخارج على سلطان الدولة العباسية أو مقتطعَ شيئاً من أرضها .

ففى نفس الوقت الذى لجأ فيه إدريس بن عبد الله المحض إلى المغرب الأقصى ظهر فى غربى المغرب الأوسط (وهران وما يليها غرباً) أخوه سليمان ، وربما كان اللاجئون إلى المغرب أولاد سليمان هذا ، لأن سليمان هلك فى معركة فخ مع من هلك من كبار العلوية فى الغالب ، وابن خلدون يقول ناقلاً عن ابن حزم دون تحقيق ، إن سليمان فر إلى تاهرت بعد موت أخيه إدريس الأول فيما بين سنتى ١٧٧ و٢١٣هـ/ ٧٩٣ و ٨٢٨م « فاستنكره البربر وطلبه ولاة الأغالبة فكان فى طلبهم (إياه) تصحيح نسبه .ولحق بتلمسان وملكها »[1] . وليس لدينا ما يُضعِّف هذا الخبر إلا قوله أن ولاة الأغالبة طلبوه ، فإن دولة الأغالبة قامت سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م فى القيروان على يد إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمى فى الفترة التى يقول ابن خلدون إن عمال الأغالبة طاردوا سليمان فى تاهرت ، وكانت دولة الأغالبة إذ ذاك فى دور التأسيس ، وكان إبراهيم بن الأغلب مشغولاً بأمر خصومه ومنافسيه فى إفريقية ، ثم إن منطقة تاهرت كانت أبعد ما تكون عن بلد الأغالبة ، فكيف يطلبونه أو يطلبه عمالهم؟

ولكن الذى يمكن قوله هو أن سليمان أو أبناءه لحقوا بتاهرت فلم يُكتب لهم فيها توفيق ، فانتقلوا إلى تلمسان ، وتلمسان كانت دار إسلام من زمن بعيد . وهى مدينة قديمة اسمها عند الرومان بوماريا Pomaria وكانت فى منطقة تسيطر عليها قبائل

(١) ابن خلدون ، التاريخ ٤/ ١٧.

زناتية مثل جراوة ونفوسة ، فلقيت دعوة سليمان أو بنيه بها قبولاً من بربر تلمسان وقد حفزهم النسب العلوى الهاشمى إلى التماس البركة فيه ، ويمكن القول أن صاحب الأمر منهم كان محمد بن سليمان بن عبد الله ، فتمهد له الأمر هناك ولم يتيسر له إنشاء دولة ، وإنما هو أقام فيها شيئاً يشبه الإمارة الصغيرة أو المشيخة ، فَسَادَ أهلها وتيمنوا به وصاهروه واستقرت قدمه وضربت جذوره ، وخلفه على تلمسان ابنه محمد بن محمد بن سليمان بن عبد الله المحض .

وغريب من ابن خلدون فى هذه المناسبة أنه يذكر أن سليمان عندما مات خلفه ابنه محمد على تلمسان على سنته ثم افترق بنوه على ثغور المغرب (الأوسط) فاقتسموا ممالكه ونواحيه ، فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد بن محمد [1] فكيف يكون محمد بن محمد بن سليمان هو محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد ابن محمد ؟ وما هى هذه الأسماء كلها التى ترد فى النسب ؟ فهل المراد هنا محمد آخر من أحفاد سليمان بن محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد بن محمد ؟ وهذا على أى حال مستبعد لتعدد الأسماء فى هذا النسب مما يعنى تأخُّر المدة .

على أى الأحوال ، نستطيع القول إن أبناء سليمان أو ابنه محمد انتشروا فى المغرب الأوسط ، وكانت لهم فيه إمارات أو دويلات صغيرة كثيرة . يقول ابن خلدون « ثم افترق بنوه - بنو محمد - على ثغور المغرب الأوسط واقتسموا ممالكه ونواحيه ، فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم بن محمد بن أحمد (وقد ناقشنا اسمه وشككنا فيه ، وأظن أن الذى يتكلم عنه ابن خلدون هنا - أقصد القاسم - هو الذى يدعى بنو الواد نسبه ، فإن هذا أشبه من القول بأن القاسم بن إدريس هو الذى قام بهذه الدعوى [2] وكانت أرْشكول [3] لعيسى بن محمد بن سليمان وكان منقطعاً إلى الشيعة (أى : إلى العبيديين الفاطميين فى إفريقية ثم فى مصر) وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان ثم لابنه عيسى ، وكنيته أبو العيش ، ولم تزل إمارتها فى

---

(١) ابن خلدون ، تاريخ ٤/ ١٧ .

(٢) أتيت بهذه العبارة لأستلفت النظر إلى أن بنى عبد الواد أو بنى يغمراس بن زيان الدين حكموا المغرب الأوسط فيما بعد يدعون لأنفسهم نسباً علوياً هاشمياً وهم فى الحقيقة من صميم البربر .

(٣) تكتب أيضاً أرشقول وهى إلى غرب وهران من موانىء المغرب الأوسط .

ولده ، ووليها بعده ابنه إبراهيم بن عيسى ثم ابنه يحيى بن إبراهيم ، ثم أخوه إدريس ابن إبراهيم ، وكان إدريس بن إبراهيم صاحب أرشقول منقطعاً إلى عبد الرحمن الناصر... وكانت تِنِس لإبراهيم بن محمد بن سليمان ثم لابنه محمد من بعده ... وكان من ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم ... قال ابن حزم : وهم فى المغرب كثير جداً ، وكان لهم منها ممالك وقد بطل جميعها ، ولم يبق منهم بها إلا رئيس بنواحى بجاية ... الخ »[1] .

فهذه الجماعة الإدريسية الحسنية انتشرت فى نواحى المغرب الأوسط الغربى وكان معظم سكانه زناتية ، فعرَّبتهم وصححت إسلامهم على طريق أهل السنة ، وكان للحسنيين هؤلاء أثر بعيد جداً فى تعريب هذه النواحى حتى تندوف فى داخل الصحراء الكبرى . وينبغى أن نحسب هنا حساب أبنائهم وأحفادهم وأصهارهم من البربر الذين استعربوا ، فكان هذا الفريق من قريش صاحب اليد الطولى فى تعريب هذا الجانب الكبير من العالم الإسلامى وهم فى مجموعهم نماذج للدويلات القرشية الصغيرة التى حفل بها العالم الإسلامى فى كل ناحية من نواحيه .

العَلَويّون الحسنيّون وإسلام بلاد الدَّيلم وَدهستان وَجرجان :

وكما كانت فروع العلويين الحسنيين هم الذين وسَّعوا نطاق الإسلام وثبَّتوا دعائمه فى المغرب الأقصى وغرب المغرب الأوسط ، فقد قام حسنيون آخرون بدور يماثل هذا فى طبرستان جنوبى بحر الخزر وهو قزوين ، وما يلى بحر الخزر شرقاً وغرباً من بلاد جرجان ودهستان والدامغان وجيلان ، وقد كانت هذه البلاد الجبلية الوعرة قد تخلفت دون إسلام أثناء أعمال الفتوح الكبرى ، فإن طبرستان جنوبى بحر الخزر - وهى منطقة الرى التى تقوم فيها طهران حالياً - تضم بلاداً واسعة انصرف المسلمون عنها بخراسان وسجستان وما يليهما شرقاً ، لأنها كانت عند القسمة بين ولايتى البصرة والكوفة قد وقعت من نصيب الكوفة ، والكوفة كانت ولاية ضعيفة نسبياً إذا قورنت بولاية البصرة التى كانت تشمل معظم العراق وما يليه شرقاً بما فى ذلك بلاد

---

(١) ابن خلدون : ٤/ ١٧ .

ما وراء النهر ، فلم تستطع ولاية الكوفة أن تواصل أعمال الفتوح بنفس القوة التى سارت بها ولاية البصرة ، ثم إن الولايتين كان يحكمهما رجل واحد فى معظم العصر الأموى وكانت أحداث خراسان الخطيرة قد استنفدت جهود الفاتحين والولاة ، وكذلك انصرفت الجهود إلى الفتوح فى بلاد التركستان وهى ما وراء النهر .

فلما قامت الدولة الطاهرية فى خراسان سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م أيام المأمون هدأت أحوال المشرق ، واستطاع أبو الطيب طاهر بن الحسين أول الطاهريين أن يلتفت إلى بلاد طبرستان وشرقى بحر الخزر . وفى أيام محمد بن طاهر بن أبى العباس عبد الله بن طاهر ، وهو خامس الأمراء الطاهريين «٢٤٨ - ٢٥٩هـ/ ٨٦٢ - ٨٧٣م» صاحب خراسان كان يتولى أمور طبرستان ابن عم له يسمى سليمان بن عبد الله بن طاهر نائباً عنه ، ووقعت بينه وبين بيت من بيوت الطبريين يسمى بيت بنى رستم خصومة ، فبحث محمد وإبراهيم ابنا رستم عن شخصية عربية تقودهم فى صراعهم ضد ولاة الطاهريين العباسيين أصحاب خراسان ، واستقر رأيهم على الحسن بن زيد بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب ، وكان من بين العلويين الذين سالموا العباسيين ودخلوا فى خدمتهم فولوه المدينة ، وكان له فيها أثر غير محمود ، فقد أعان أبا جعفر المنصور على ابن عمه عبد الله المحض وبنيه وآله الذين ذكرنا بعض أخبارهم ، ثم انتقل الحسن بن زيد هذا إلى الرى وهناك استنجد به محمد وجعفر ابنا رستم على محمد ابن طاهر ، فأتاهم ورأسهم وتمكّن من الانتصار على نواب الطاهريين والاستقلال بطبرستان وجرجان .

وقد طالت الحرب بين أولئك الزيديين والطاهريين حتى نهاية الدولة الطاهرية فى حدود سنة ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م .

وكان الديلم وهم أهل طبرستان لا يزال معظمهم على الكفر فاستطاع أولئك الزيديون إدخالهم فى الإسلام وأكملوا إسلام جرجان ودهستان وما بين نهر سيحون وبحر قزوين من البلاد جنوبى خوارزم وتلك بلاد واسعة كانت غفلاً من الإسلام ، فدخلت فيه على أيدى أولئك العلويين الزيديين المجاهدين برئاسة شيخهم الحسن بن زيد الذى ظل أميراً على طبرستان حتى رجب سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م .

وقد لُقِّب بداعى طبرستان لاجتهاده فى نشر الإسلام وبَثِّ الدعوة الزيدية فى تلك البلاد .

وعندما اشتد ساعد يعقوب بن الليث الصفار فى سجستان تطلع إلى تلك البلاد ، بلاد طبرستان وكبار قواعدها من مثل الرى وآمد وقزوين ، فثبت له الحسن بن زيد هذا ثم ابنه ، واستمرت الحروب طويلاً بين الجانبين . وخلف الحسن بن زيد فى القيادة والإمامة أخوه محمد بن زيد بن الحسن بن الحسن الأطروش .

وعندما قُتِل محمد بن زيد دخل بلاد الديلم زعيم علوى آخر هو الحسن بن على ابن الحسين بن عمر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، فكأن الزعامة هناك انتقلت من الحسنية إلى الحسينية ، والحسن هذا يلقب بالأطروش أو بداعى الطالقان وكان مذهب الشيعة الزيدية قد انتشر فى طبرستان وجرجان فدخل فى المذهب الحسن الأطروش رغم حسينيته . وقد طال أمر الزيديين فى طبرستان ومرت بهم صروف طويلة حتى انتهى أمرهم سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م ، ومما يستلفت النظر أن أحداً لم يكتب لنا تاريخ أولئك العلويين على نحو يستوفى أعمالهم ويُظهر عظيم غَنائهم فى نشر الإسلام وكان لهم أثر بعيد فى إكمال إسلام الناس من ناحية وتثبيت دعائم المذهب الزيدى من ناحية أخرى[1] .

وإنما وقفنا بهم هذه الوقفة القصيرة لأنهم بيت هاشمى قرشى كان له دور عظيم فى نشر الإسلام ، وتاريخهم يدل كذلك على حيوية البيت 'لعلوى ما بين حسنية وحسينية ، وكأنما كان اجتهاد بنى أمية وبنى العباس فى استئصال آل البيت دافعاً إياهم إلى الاستمساك بالبقاء والاجتهاد فى إثبات حقهم فى الرياسة ، والحق أن الإنسان ليتعجب من حيوية الحسنيين خاصة الذين ظهروا فى كل مكان ، كأنهم موج متدفق لأول ما بدت دلائل الضعف على بنى العباس . وفى أيام المأمون كانت موجات العلويين فى كل نواحى الدولة الإسلامية أشبه بالطوفان ، وقد ذكرنا ذلك فيما سبق .

---

(١) انظر موجزاً لتاريخهم الحافل فى طبرستان وبلاد الديلم عن ابن خلدون ، تاريخ ٤/ ٢٢ - ٢٨ .

وقد أورد ابن خلدون فى تاريخه موجزاً بدول العلويين فى فصل جامع عنوانه : الخبر عن نسب الطالبيين وذكر المشاهير من أعقابهم [1] ، وهو فصل جامع أقامه ابن خلدون على أساس شجرة نسب على بن أبى طالب التى أوردها ابن حزم فى الجمهرة ، وأنت ترى فى هذا الفصل الذى اقتصر فيه ابن خلدون على دول المشاهير منهم ، أن هذه الدول تكاد تُعْجِز الباحث عن تتبع تواريخها ، فهى عشرات الدول فى كل بلاد مملكة الإسلام بما فى ذلك بلاد غانة أى إفريقية المدارية والاستوائية ، ولم يورد ابن خلدون - طبعاً - ما ظهر من دول العلوية بعد حتى أيامه فى بلاد السودان وآسيا وخاصة جنوبها وجنوبها الشرقى .

ويبدو أن الأمر لم يقتصر على تصدى العلويين للإمامة حيث وجدوا فرصة لذلك ، بل إن الناس أنفسهم كانوا إذا وجدوا بينهم علوياً يتوسمون فيه الخير يقدمونه ، وذلك لا يمنع من أن يقوموا عليه بعد ذلك، ولكن العلويين كانوا مُقدَّمين على غيرهم إذا كان الأمر أمر إمامة ، ولهذا تعددت دولهم وشملت العالم الإسلامى كله وعصوره كلها إلى يومنا هذا ، وإنه لعجيب أن ينجب على بن أبى طالب أولاداً كثيرين من نساء شتى ، فلا تكون الذرية الضخمة والإمامة بشتى صورها إلا فى أبناء ثلاثة منهم : اثنان من أولاد فاطمة هما الحسن والحسين ، وواحد من غيرها وهو محمد ابن الحنفية ، ومن أولئك الثلاثة جاء فيض يشبه السيل ، فهم - حرفياً - ألوف ، وذلك رغم من قُتِل منهم وهم كثيرون جداً . ولقد انقطع أو خفى نسل القرشيين جميعاً إلا من نسل رسول الله ﷺ من هؤلاء الثلاثة ، وقد جعل الله سبحانه من البركة فيهم ما لم يجعل فى أحد من بنى آدم ، وما بقى من قريش أحد يُعرف ويذكر على تحقيق إلا من عترة المصطفى صلوات الله عليه من بنت واحدة .

الزَيْديّون فى اليَمَن :

ومن هذه الدول القرشية لم نذكر إلى الآن إلا ثلاثة كباراً هم : بنو أمية فى الأندلس، وبنو إدريس فى المغرب الأقصى - ومعهم بنو أخيه سليمان فى المغرب الأوسط - ثم العلويون الحسنيون فى بلاد الديلم وطبرستان وجرجان ، والدولة

---

(١) ابن خلدون ، تاريخ ٤/ ١١٣ .

الأولى أموية ، وهى دولة جهاد وسياسة وعروبة ، قامت فى التاريخ العالمى بدور كبير ، لأنها قامت على أرض أوروبية . والثانية - الإدريسية - دولة علوية سنية ذات فضل عظيم فى تثبيت دعائم الإسلام على مذهب السنة والجماعة فى المغرب ، مع جهد عظيم فى التعريب ، والثالثة دولة الحسينيين فى بلاد الديلم وهى دولة نشر للإسلام فى نواح من مملكة الإسلام لم يكن قد انتشر الدين فيها فعرف أولئك الحسينيون كيف يُدخِلون أهلها جميعاً فى الدين .

والدولة الرابعة من دول قريش التى نذكرها هى دولة الزيدية فى اليمن وهى تتميز على غيرها من دول القرشيين بأنها قامت على العلم ، فإن الإمام الذى أقامها كان عالماً اشترط على نفسه عندما شرع فى إقامة إمامته أن يلتزم بعماد من الإسلام لم يلتفت إليه أحد من رجال دول الإسلام فى العصور الوسطى ، وهو احترام الأمة والتزام مبادىء الإسلام السمح فكراً وعملاً ، وذلك فى البداية على الأقل ، فإن المؤسس الحقيقى لتلك الدولة الزيدية كان إماماً عالماً مجاهداً نجداً ، هو الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين القاسم الرسى الذى بدأ إمامته فى اليمن سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م .

وقد قامت الدولة الزيدية فى اليمن على مذهب وضعه الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وكان عالماً مفكراً مجتهداً انصرف أول أمره إلى طلب العلم ، شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أئمة العلويين من أبناء الحسين ابن على رضى الله عنه ، وقد اتفق زيد بن على زين العابدين مع غيره من العلوية فى أن أَوْلَى الناس بإمامة الأمة بعد رسول الله ﷺ هو الإمام على ، ولكنه لم ينكر إمامة الشيخين ولا هو رضى بالقدح فيهما ، ثم قال : إن الإمامة فى بيت على ولكنها ليست ميراثاً من أب لابن وليست سراً ينتقل فى الأصلاب بإرادة إلهية كما يقول الإمامية الإسماعيلية ، ولكن يتولاها أفضل الموجودين من بيت على رضى الله عنه علماً وفضلاً وإيماناً ، فجمع الرجل بذلك بين شىء ترضى عنه الشيعة وشىء ترضى عنه السنة .

لهذا ، فقد لقى المذهب الزيدى قبولاً حسناً عند عامة المسلمين ، ثم إن زيد بن على ابن الحسين وضع أسس مذهب فقهى ووضع كتباً قام عليها المذهب الزيدى ، وأكمل

عمله غيره ممن تولوا الإمامة أو الفقه على مذهب الزيدية ، ويستوقف النظر أن زيداً وهو من أبناء الحسين بن على وضع أساس المذهب الزيدى ، أما الذى أكثر التأليف فى المذهب وأقام إمامته ، فكان رجلاً حسنياً هو الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ابن القاسم الرسى ، فهو على هذا ، مذهب حسينى حسنى فى آن معاً .

والإمام زيد بن على زين العابدين مؤسس المذهب الزيدى وصاحب الفضل فى قيام دولة الزيديـة فى اليمن كان من أبطال آل البيت فى صراعهم للوصول إلى السلطان ، وكان زيد مباعداً للسياسة منصرفاً إلى العلم شأنه فى ذلك شأن أخيه محمد الباقر بن على زين العابدين وبقية آل الحسين بن على حتى جعفر الصادق ، ولكن الخليفة هشام بن عبد الملك الأموى «١٠٥ - ١٢٥هـ/ ٧٢٣ - ٧٤٢م» آذاه وأحرجه ونال منه دون داع ، وكان هشام نفسه يحكم فى ظروف سيئة ، فإن الأرض كانت تميد تحت أقدام بنى أمية ، واتسع نطاق الثورات عليهم فى كل نواحى دولتهم ، وأدت الحروب والثورات - إلى جانب سوء تصرف الخلفاء السابقين عليه من بنى أمية - إلى هبوط خطر فى إيرادات الدولة ، وإصلاحات عمر بن عبد العزيز التى هزت المالية الأموية هزاً عنيفاً لم تجد الإدارى المالى الذى يعيد التوازن الاقتصادى للدولة ، ثم جاءت الفتن بين جند الدولة من قيسية ويمنية .

واضطرب الأمر فى يد هشام اضطراباً مخيفاً وانصب جانب كبير من غضب هذا الخليفة الأموى على زيد بن على زين العابدين هذا ، لأنه كان يتمتع بمكانة رفيعة ومهابة عظيمة فى قلوب الناس ، فتعمد هشام أن يهينه أمام الناس فلم يجد زيد بُدّاً من الرد على الخليفة المستهين بكرامات الناس ، فدعا للبيعة لنفسه ، وذهب إلى الكوفة حيث تجمع حوله ناس كثيرون وبايعوه ، وأغلب الظن أن زيداً كان يعلم أنه مقتول ، فقد كان أعلم الناس بقلة القيمة العملية للمبايعات التى كان يتلقاها بالألوف . وعندما سَيَّر والى العراق لهشام بن عبد الملك قواته للقاء قوات زيد انفضَّ الناس من حوله إلا ٢١٨ رجلاً فيما يقال ، وكان اللقاء قرب الكوفة ، وكان لقاء انتحار معروف النتيجة ، وكان استشهاد زيد بن على زين العابدين سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠[١] .

(١) انظر عن زيد بن على رسالة الأستاذ إبراهيم الوزير بيروت ١٩٧٠ ، واقرأ فى هذا الكتاب تأييد عدد عظيم من علماء المسلمين لدعوة زيد بن الحسين ، ومنهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت : ص١٢ - ١٣ .

وكان هذا الموت العنيف لزيد دافعاً للناس إلى مزيد من التعلق به وبآرائه ، وبالفعل كانت آراء زيد بن على زين العابدين السياسية أحسن ما وصل إليه الناس إلى أيامه من القول بحرية الناس فى اختيار الإمام من بيت على ، ولم يكن حصر الإمامة فى بيت على بقيد يُذكر على حرية الناس فى الاختيار ، فإن العلويين كانوا كثيرين جداً ولا يعدم الناس فيهم رجلاً صالحاً للإمامة ما دام الإمام زيد لا يشترط الوراثة ، وكان الإمام زيد يرى أن تكون المفاضلة بين المرشحين على أساس صالح الجماعة الإسلامية ، ونفى زيد القول بعصمة الأئمة وأباح للأمة الحق فى خلع الإمام إذا لم يحسن السياسة ، والمذهب الزيدى على هذا أقرب الآراء إلى مذهب أهل السنة الذين كانوا يرون أن الخلافة حق مطلق للأفضل بين المسلمين . ولا يؤمن الزيديون بالتقية أى بحق الإنسان فى إنكار مذهبه والظهور بغيره خوفاً على حياته ، ولا يرون ضرورة لاختفاء الأئمة ، وإنما الإمام عندهم يكون صريحاً معلناً فى مكان وظروف تضمن سلامته وسلامة جماعته ، وزيد بن على بن الحسين كما رأينا أعلن نفسه إماماً ودعا الناس إلى بيعته جهاراً دون أن يستتر أو يتوقى .

ولا غرابة إذن فى أن ينتشر المذهب الزيدى انتشاراً واسعاً ويُوجِد لنفسه أنصاراً فى كل بلاد المسلمين ، وقد لجأ الكثيرون من آل البيت إلى نواحٍ قصية من الدولة الإسلامية وأعلنوا عن أنفسهم فيها ، وبعضهم طلب الخلافة وبعضهم لم يطلبها . والأدارسة الذين مررنا بهم كانوا فى الحقيقة زيديين مذهبياً دون أن ينتبهوا لذلك ، لأن مذهب الزيدية استلزم وقتاً طويلاً لكى يعرفه الناس حق المعرفة وهو لم يظهر كمذهب قائم بذاته له فقهه ونظره إلى أمور المسلمين بما فيها التشريع إلا من أوائل القرن الهجرى الثالث .

وصاحب الفضل فى تثبيت قواعد هذا المذهب وإقامة إمامة على أساسه رجل من آل الحسن بن على بن أبى طالب هو يحيى بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن القاسم الرَّسى (نسبة إلى الرس قرية صغيرة على الطريق بين مكة والكوفة إلى الشمال الغربى من مدينة الرياض الحالية) ، والقاسم الرَّسى هو ابن إبراهيم طباطبا الذى أشرنا إليه، وهو ابن إسماعيل بن على بن إبراهيم بن عبد الله المحض قتيل باخمرا قرب الكوفة سنة

١٤٥هـ/ ٧٦٢م ، وقد ذكرنا قيامه فى الكوفة بعد مقتل أخيه محمد النفس الزكية .

ويحيى بن الحسين هذا الذى نحن بصدده كان حنفياً ، ولكنه أخذ المذهب الزيدى عن أبيه الحسين وذهب إلى اليمن واستقر فى صعدة سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م . وتلقب بالإمام الهادى إلى الحق ، وفى خطاب إمامته الذى ألقاه فى ٦ صفر سنة ٢٨٤هـ أعلن أسس إمامته ، وهى إلى ذلك الحين أقرب أسس أعلنها إمام إلى روح الإسلام بعد الأسس التى قامت عليها خلافة الراشدين . وقد قال فيه : « أيها الناس ، إننى أشترط لكم أربعاً على نفسى : الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ . والأثرة لكم على نفسى فيما جعله بينى وبينكم ، وأوثركم فلا أُفَضَّلُ عليكم ، وأقدمكم عند العطاء قبلى ، وأتقدم عليكم عند لقاء عدوى وعدوكم . وأشترط لنفسى عليكم اثنتين : النصيحة لله سبحانه وتعالى فى السر والعلانية ، والطاعة لأمرى على كل حالاتكم ما أطعت الله . فإن خالفت فلا طاعة لى عليكم ، وإن مِلْتُ وحِدْتُ عن كتاب الله وسنة نبيه فلا حجة لى عليكم . فهذه هى سبيلى أدعو الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعنى »[1] .

وهذا كلام رجل جاد يعنى ما يقول وهو لم يقل هذا الكلام سياسة منه أو استجلاباً لرضى الناس ، بل كان الرجل بالفعل إماماً فى العلم وله تآليف فقهية كثيرة وفتاوى مشهورة بين أهل اليمن إلى يومنا هذا ، وقد أحصى الأستاذ عبد الله محمد الحبشى من مؤلفاته سبعة وسبعين كتاباً ورسالة ، وترجم له وذكر مؤلفاته معاصره على بن محمد العباس من القرن الثالث الهجرى وقام بتحقيقه ونشره فى بيروت د. سهيل زكار سنة ١٩٧٢ ، ولم نسمع بمثل هذا البحر فى العلم والوفرة فى التأليف لرئيس آخر من رؤساء الإسلام .

ولم يذهب الإمام يحيى إلى اليمن طالباً للإمامة وإنما كان أهل صعدة فى اليمن ، هم الذين استدعوه ويقال إنه وصل صعدة سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م وكانت سنُّه إذ ذاك خمساً وثلاثين سنة ، إذ إنه وُلِد فى جبال الرس سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م ، وبدأ لأول وصوله فى تأسيس إمامته فى شمال اليمن ثم تمكن من دخول صنعاء ، ولكنه لم يلبث

(١) أورده الدكتور حسن سليمان محمود فى كتابه : تاريخ اليمن السياسى فى العصر الإسلامى ، بغداد سنة ١٩٦٩ ، ص٢٧٨ - ٢٧٩ .

أن ارتد عنها ، ولو أن هذا الإمام قام فى غير اليمن لكان له شأن أكبر مما كان له ، ولكن اليمن من أصعب بلاد الله على الحكم لأن أهلها من أشد الناس شكيمة واعتزازاً بأنفسهم حتى ليخيل لمن يقرأ تاريخ اليمن أن كل يمنى إمام فى نفسه ، ومن ثَمَّ فإن نفسه لا ترضى له البيعة لغيره ، وقد استطاع الإمام يحيى بن الحسين تثبيت مركزه فى شمال اليمن وقضى معظم أيامه فى حرب المنافسين له ، ومحاولة القضاء على دعوة القرامطة فى تلك البلاد ، واستمر عقبه يحكمون شمال اليمن ، واليمن كله فى فترات قصيرة إلى العصر الحديث . وقد تولى الأمر من أئمة هذا البيت فوق الخمسين إماماً ، ظلوا يحكمون فى صعدة ونجران خاصة حتى سنة ١٩٦٢ عندما قامت هناك الثورة العسكرية التى أنهت حكم الأئمة الزيديين بعدما حكمت فى اليمن ١٠٦٥ سنة ميلادية ، وهذا أطول عمر لدولة فى التاريخ ، بما فى ذلك دول الصين التى اشتهرت بطول العمر .

وابتداء من القرن العاشر الهجرى وفى حكم الإمام يحيى شرف الدين (٩١٢ - ٩٦٥هـ/ ١٥٢٥ - ١٥٧٨م) ، ونتيجة لغزو الأتراك العثمانيين لليمن اتسع سلطان الأئمة الزيود وامتد نفوذهم لأنهم هم الذين تولوا المقاومة للحكم العثمانى ، وبعد خروج الأتراك العثمانيين اتسع نفوذ الأئمة حتى شمل اليمن كلها ، وفى سنة ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م قامت عليهم ثورة إمامية أيضاً قادها الإمام المنصور محمد بن على الوزير ووقعت بلاد اليمن بعد ذلك فى فوضى شاملة استمرت مائة وعشر سنوات ميلادية .

وعندما انتهى الحكم العثمانى الثانى لليمن سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م ، تمكن الإمام المتوكل يحيى بن محمد حميد الدين (١٣٣٧ - ١٣٦٧هـ) من السيطرة على اليمن كلها شمالاً وجنوباً بمساعدة الإنجليز الذين احتلوا عدن سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م ، وهذا الاحتلال الإنجليزى لعدن هو بداية انقسام اليمن إلى شمالى وجنوبى ، والإمام المتوكل يحيى بن محمد حميد الدين من سلالة الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرَّسى ، وقد طال حكم هذا البيت وتقادم به العهد وجمد تماماً وربط نفسه ربطاً قوياً برؤساء القبائل ، فلم تفلح ثورة ١٩٤٨ التى قادها آل الوزير واستمرت

فترة قصيرة من الزمن ، عاد بعدها الإمام يحيى إلى السلطان فى البلاد حتى قضت عليها نهائياً ثورة عبد الله السلال بتأييد جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٢م .

وهذه التجربة الهاشمية القرشية تستحق الدراسة ، وهى لم تدرس إلى الآن حق الدراسة نظراً لطول عمرها وتقلب الأحوال فيها خلال ذلك الحكم الطويل ، ولقد تعاقبت على وسط اليمن وجنوبه دول كثيرة مثل بنى زريع وهم بنو الكرم فى عدن ، ودولة بنى نجاح / وهم أحباش / والكُدَراء دولة بنى مهدى فى زيد . والصليحيين الشيعة فى صنعاء وهم حلفاء الفاطميين ، وبنى رسول فى زبيد وعدن وتعز وبقية بلاد الساحل ، وغيرهم كثيرون ، ويلاحظ بصورة عامة أن الأئمة الرسيين كانوا فى الغالب سادة صعدة وبلاد الداخل فى حين تعاقبت الدول على السهول الساحلية وعدن ، وحتى العثمانيون لم يمتد سلطانهم قط إلى الداخل ، وتاريخ اليمن على أى حال فى حاجة إلى من يكتبه ولو على وجه الاختصار ، لأنه بلد واحد فى نظر التقسيم العام لبلاد الإسلام ، ولكنه فى واقع التاريخ أَيْمَان كثيرة ، وقد أهمتنا الإشارة إلى دولة آل الرسى نظراً إلى أنها كانت إمامة قرشية قامت على أساس إسلامى سليم ، ولكن النُّظم تشيخ مع الزمن ويدخل عليها الفساد ولابد من تجديدها وإعادة النظر فيها بين الحين والحين .

الدّولة الفاطِميّة فى إفريقيَة وَمِصر وَالشَّام :

كان ينبغى فى سياق هذه الدراسة أن نقف طويلاً عند الدولة الفاطمية ذات الصيت البعيد ، وهى دولة هاشمية قرشية ، إمامها عبيد الله المهدى الذى ينتسب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق سادس الأئمة من ولد الحسين بن على بن أبى طالب ، وفى صحة انتسابه خلاف كثير ، ولكننا نبهنا فى هذه الدراسة على أننا لا نناقش الأنساب ، فما دام رجل يقول إنه هاشمى فلا مجال للمناقشة فى هذه الدعوى لأن صحة الأنساب لا يعلمها إلا الله سبحانه ، وقد يكون ادعاء الهاشمية والزعم بالانتساب إلى بنى هاشم وآل البيت أدل على صواب ما نقول به فى هذا البحث من جلال اسم بنى هاشم وقريش ، فإن دعوى هذا الانتساب ، هى التى هيأت للداعى سواء أكان صادقاً أم غير صادق التأييد الذى استند إليه فى إقامة دولته.

ويتضح لنا هذا بصورة خاصة فى قيام الدولة الفاطمية فى إفريقية سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م . فإن رجال قبيلة كتامة البرنسية من البربر الذين استمعوا إلى أبى عبد الله الداعى وصدقوه ، لم يناقشوا فى صحة نسب الإمام المستتر الذى دعاهم إلى الدخول فى طاعته عبد الله الداعى ، وحتى عندما نجح أبو عبد الله الداعى الشيعى فى القضاء على الدولة الأغلبية وأعلن الخلافة الفاطمية فى القيروان سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م. لم يكن الداعى يعرف الإمام عبيد الله المهدى شخصياً ولم يره عياناً ويتعرف عليه ، إلا عندما استنقذه من أسر بنى مدرار فى سجلماسة سنة ٢٩٧هـ/ ٩١٠م .

ولكننا لن نقف طويلاً عند الدولة الفاطمية فهى حقاً دولة طويلة التاريخ متسعة الرقعة ، ولكنها فى مجموعها لم تزد على أنها دولة سياسية هدفها الرئيسى هو تثبيت السلطان السياسى لأسرة علوية ومدّ رقعته دون أن يكون لها فى ذاتها محتوى حضارى أو رسالة تتصل بالعروبة والإسلام ، وقد رأينا أن دولة بنى أمية فى الأندلس كانت دولة جهاد ومثاغرة وعروبة وإسلام ، ودولة الأدارسة لها دور عظيم جداً فى تثبيت دولة السنة والجماعة فى المغرب ، ودولة العلويين فى طبرستان قامت بنشر الإسلام وتصحيح مذاهب الناس فى مساحة واسعة من بلاد الإسلام ، ودولة آل الرسى فى اليمن إمامة تميزت بسلامة الأسس التى قامت عليها وإن تفرقت بها السبل وصروف الأيام فيما بعد .

أما الدولة الفاطمية فلم يكن لها دور حقيقى فى تاريخ الإسلام العام ، فإن حال إفريقية بعدها أصبح أسوأ مما كان عليه قبلها من كل ناحية ، ثم إنها بحملاتها المتكررة على المغربين الأوسط والأقصى أثارت العصبية القبلية بين البربر ، وأضرَّت بالمغرب كله ضرراً بليغاً ، بل امتد أذاها إلى دولة الإسلام فى الأندلس ، لأن تطلعها إلى المغرب الأقصى وتدخلها فى شئونه اضطر الأمويين الأندلسيين من أيام الناصر لدين الله إلى الالتفات إلى الجنوب وتوجيه جانب كبير جداً من قواهم إلى المغرب مما أضعف جبهتهم الشمالية أمام النصارى .

أما فى بلاد الشام فلم يكن للفاطميين فيه دور متميز ، إنما هم دخلوا هناك فى زمرة

المتنازعين على السلطان فى بلاد لم تكن بحاجة إلى طامعين جدد يدخلون حلبة التطاحن.

فهى على هذا دولة قرشية كبيرة ولكنها ليست عظيمة ، ومذهبها الإسماعيلى نفسه كما يصوره كبار دعاتها مثل القاضى النعمان بن محمد متطرفون جداً فى الدعوة الإسماعيلية ذات الاتجاه البعيد عن صفاء الإسلام ، وهذا التعقيد الشديد فى المذهب الإسماعيلى الذى قامت عليه الدولة الفاطمية ، ودعا إليه دعاتها ، هو الذى باعد بين عامة المصريين ودعوى الشيعة جملة ، وقد نفر أهل إفريقية نفوراً شديداً من المذهب الإسماعيلى ووقف فقهاء المالكية من كل مذاهب الشيعة موقفاً حاسماً كان له أبعد الأثر فى مركز الدولة الفاطمية فى إفريقية وبقية المغرب ، لأن فقهاء المالكية المغاربة كانوا متشددين فى مذهبهم متمسكين بكل تفاصيله ، وكان فيهم إلى جانب ذلك علماء أجلاء متمكنين من مذاهب السنة استطاعوا الثبات لكل دعوات الإسماعيلية وأثبتوا بطلان ما عداها ، واجتهدوا فى نفس الوقت فى بث النفور والكراهة من كل انحراف عن المذهب السنى ، فلم تضرب مذاهب الإسماعيلية بجذورها فى التربة المغربية ، وما كادت الدولة الشيعية تنتقل إلى مصر حتى تلاشى المذهب من المغرب ، إلا فيما يتعلق ببعض شكليات أرغم على التظاهر بها نوابهم فى المغرب وهم بنو زيرى ابن ماد الصنهاجيون ، ثم تلاشى المذهب وكل ذكر له فى أفريقية والمغرب فى أيام المعز بن تميم الصنهاجى عندما قطع علاقاته بالفاطميين فى مصر سياسياً ودينياً .

وقد تناولت بالتفصيل الدور الذى كان للدولة الفاطمية فى المغرب (٢٩٧ - ٣٦٢هـ/ ٩٠٩ - ٩٧٣م) فى كتابى عن تاريخ المغرب من قبيل الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة السعدية ، وهو فى مجموعه دور سيء ، لأن أهل أفريقية نفروا من الدعوة الفاطمية نفوراً شديداً ، وقادهم فى ذلك شيوخهم المالكيون الذين اعتبروا المذاهب الشيعية كلها خارجة على الإسلام ، وخلال ما يزيد قليلاً على ستين سنة لم يوفق الفاطميون فى إقامة جسور تفاهم مع شعب أفريقية ، وفى أيام الخليفة الفاطمى الثانى وهو القائم أبو القاسم محمد بن عبد الله المهدى (٣٢٢ - ٣٣٤هـ/ ٩٣٤ - ٩٤٥م) قامت ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار ، وكان معلم صبيان سنياً

من بنى يفرن من زناتة ، ولكن دعاة الشيعة زعموا فيما بعد أنه كان خارجياً صفرياً نكارياً يُكفِّر أهل الدين ويستبيح الأموال .

والحقيقة أن حركة أبى يزيد هذا تمثل استياء الناس فى أفريقية من الحكم الفاطمى، فإن الأمر لم يقتصر على النفور العام من المذهب الشيعى الإسماعيلى ، بل إن سياسة الفاطميين المالية كانت سياسة استغلال مالى بشع لم يعرفه أهل المغرب إلى ذلك الحين ، فلم يدعوا شيئاً لم يفرضوا عليه مالاً وابتكروا من الجبايات ما لم تعرفه دولة إسلامية أخرى إلى ذلك الحين ، وزاد الفاطميين نهماً إلى المال حاجتهم إلى الجند المرتزق وانصرافهم إلى الإنفاق فى شراء الصقالبة والعبيد السود ليكونوا جندهم وحرسهم الخاص ، ثم ما أنفقوه من أموال جسيمة فى إنشاء حصن خاص لهم خارج القيروان ، اتسع حتى صار مدينة عُرِفت بالمنصورية ، ولم تكفهم هذه فأنشأوا المهدية على ساحل البحر فى موضع منيع داخل فى الماء وحصَّنوه بالأسوار والأبراج المنيعة الباقية إلى اليوم ، وجعلوا عليها أبواباً هائلة من ناحية البر ، وقد قصروا السكنى فيها على أنفسهم وخدمهم وجندهم ، وجعلوا أهل الأسواق خارج الأسوار .

وعندما اشتدت ثورة أبى يزيد ولقيت التأييد من معظم قبائل البربر الزناتية وكثير من الصنهاجية ، لجأ الخليفة الفاطمى القائم بجنده إلى المهدية سنة ٣٣٣هـ/ ٩١٤م ، ولم تنج البقية من الفاطميين إلا بفضل أسوار المهدية ، فقد اجتمع كل أهل أفريقية إلى أبى يزيد فيما عدا قبيلة كتامة . ولكن أبا يزيد نفسه كان رجلاً مسناً غير قادر على ضبط أمور الجماعات الغفيرة التى انضمت إليه ، فخرج الكثيرون عليه وأثَّرت فيهم دعاية الفاطميين من أنه خارجى نكارى .

وعندما استوثق الخليفة الفاطمى الثالث أبو طاهر إسماعيل المنصور بن أبى القاسم محمد القائم (٣٣٤-٣٤١هـ/ ٩٤٥-٩٥٢) من انصراف معظم جماعة أبى يزيد عنه ، وأنه بقى فى جماعة مبعثرة من هوارة خرج بجنده وهاجمه وشتت جموعه ، فارتد إلى القيروان حيث خافه أهلها وأقفلوا أبوابها ، فارتد بمن معه إلى الجبال وكان ذلك سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م وقبض المنصور على أبى يزيد وقتله وانتهت ثورته ، ولكن ذلك لم يَعْنِ أن أهل أفريقية عادوا إلى طاعة الفاطميين ، بل ازدادوا نفوراً منهم ،

وتأكد الفاطميون من أن أفريقية والمغرب ليسا لهم موطناً ، فاشتد اهتمامهم بغزو مصر للانتقال إليها ، وأطمعهم فيها ضعف الإخشيديين واضطراب أمورهم بعد موت كافور الإخشيدى .

وعندما توفى المنصور وجاء أبو تميم معد المعز بالله رابع خلفاء الفاطميين وأقدرهم (٣٤١-٣٦٥هـ/ ٩٥٢-٩٧٥م) ، بدأ الاستعداد الفعلى لغزو مصر ، فضاعف نشاطه فى غزو المغرب الأقصى بغرض جمع الأموال لأنهم لم يستطيعوا إقرار سلطانهم فى المغرب الأوسط وعجز عن مغالبة الأدارسة فى المغرب الأوسط وتصدى له الأمويون الأندلسيون وحلفاؤهم من الأدارسة والزناتيين . وحتى بعد انتصار جنود الفاطميين على الأدارسة وأسرهم يحيى بن يحيى بن عمر بن محمد وخروج بقاياهم من فاس ولجوئهم إلى قلعة حجر النسر ، لم يطمئن الفاطميون إلى أمر المغرب الأقصى ، لأن المنصور محمد بن أبى عامر صاحب الأمر فى دولة بنى أمية الأندلسية (٣٦٦ - ٣٩٩هـ/ ٩٧٦-١٠٠٨م) تصدى لهم بكل عنف ووالى إرسال الجيوش إلى المغرب الأقصى . وهنا ، ومن أوائل ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م استقر رأى المعز على الانتقال إلى مصر فجمع كل ما استطاع من جند ومال ، وأرسل جوهر الصقلى إلى مصر فدخلها وقضى على بقايا الإخشيديين ودخل الفسطاط فى ١٦ شعبان فى ٣٥٨هـ يوليو ٩٦٩م. وأعطى المصريين أماناً شاملاً على أموالهم وأنفسهم وعقيدتهم وقال فى أمانه «وهى إقامتكم على مذهبكم ، وأن تُتركوا على ما كنتم عليه من أداء الفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأنصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتاواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ونصه ونبيه ﷺ فى سنته ، وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه »[1] .

وهذا التسليم للمصريين بما طلبوا من البقاء على السنة دون أن تتدخل الدولة فى شئون عقيدتهم يدل أولاً : على أن الفاطميين تعلموا درساً من تجربتهم فى أفريقية

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، بتحقيق د . جمال الدين الشيال ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ .

والمغرب ، وما تبينوه من أن مذهب السنة والمال عند الفاطميين كانت مقدمة على المذهب ، حقاً أنهم أنشأوا نظاماً للدعاية للمذهب الإسماعيلى واتخذوا الجامع الأزهر مركزاً لها وأقاموا تنظيم الدعاة وعلى رأسه داعى الدعاة ، وكان فى الغالب رجلاً ذكياً واسع الاطلاع والمعرفة كما نجد عند القاضى النعمان بن محمد ، ولكنهم لم يجتهدوا فى نشر المذهب الفاطمى فى مصر اجتهاداً يثير مشاعر الناس ويؤثر فى السياسة والجباية ، فظل الخلفاء ورجالهم على مذهبهم واتبعهم ودخل فى نِحْلتهم من طلب أموالهم .

وبقيت كتلة الشعب المصرى سنية لم تمس ، وإذا كان المذهب الإسماعيلى قد لقى قبولاً وانتشاراً فى بلاد الشام إبان العصر الفاطمى ، فإن السبب فى ذلك لا يرجع إلى اجتهاد الفاطميين بل إلى استعداد كان فى بعض جماعات أهل الشام للدخول فى المذهب الإسماعيلى ، فلا شك فى أنه كانت هناك نواة إسماعيلية نمت وازدادت عدداً وقوة بتشجيع الفاطميين ، بل بلغ الأمر أن نشأ فى بلاد الشام مذهب الدروز المتفرع عن الشيعة الإسماعيلية ، وهو قد نشأ بلا شك حول نواة دينية غريبة عن الإسلام كانت هناك ، وعرف حمزة الدرزى كيف ينميها ويضبطها فى مذهب إسلامى على حرف ، والمذهب على أى حال أشبه برابطة عشائرية بين قبيل من أهل الشام .

والمال والحصول عليه هو مفتاح السياسة الفاطمية دون نظر إلى النتائج ، فهذا البلد الذى كان إلى ذلك الحين بلداً غنياً أو رخى الحال على الأقل كما تدل على ذلك صفحات كتاب سفر نامة الذى كتبه ناصرى خسرو ، الذى زار مصر أيام الخليفة المستنصر ، وإذا كنا لا نسلم بكل ما يقوله ناصرى خسرو ، لأنه كان إسماعيلياً بل هو داعية إسماعيلى ، فإننا نأخذ بجملة كلامه . وبما قاله المقريزى بعد ذلك من أن رخاء مصر تلاشى شيئاً فشيئاً خلال العصر الفاطمى الطويل ، فقد جعلوا دأبهم وَضْع أيديهم على مصادر الثروة وفرضوا على الصناع إتاوات ، وبلغ من عسف أحد وزرائهم - وهو ابن كلس - أن سياسته أدت إلى خراب صناعة النسيج فى مدن بحيرة المنزلة فى شمال الدلتا ، فقد أثقل عليها هذا الرجل بالمطالب حتى أفلس معظم المصانع ، وكانت هذه الناحية من أغنى نواحى مصر بما كانت تصنعه وتصدره من النسيج العظيم القدر والقيمة .

وباستمرار هذه السياسة المالية سنة بعد سنة أخذت أرض مصر تتلف وتبور ، لأن الزراعة لم تعد تفى بحاجات الفلاحين ، فنزح الكثيرون عن قراهم هرباً من الجبايات الثقيلة ، هذا مع عظيم نفقة الدولة على جندها الكثير، فقد أسرف الفاطميون فى شراء الجنود أو اصطناعهم ، وقد ذكر ناصرى خسرو من أصناف هذا الجند المرتزق نحو تسعة أصناف يبلغ مجموع رجالها - حسب تقديره - ٢١٠ آلاف رجل ، وهى مبالغة ولا شك ، ثم يضيف « ونفقة هذا الجيش كله من مال السلطان ، ولكل جندى منه مرتب شهرى على قدر درجته ، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد من الرعايا أو العمال ، ولكن هؤلاء يسلمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنة ، وتصرف أرزاق الجند من الخزانة فى وقت معين ، بحيث لا يرهق والٍ أو واحد من الرعية بمطالبة الجند» (١) .

ومعنى هذا أن الولاة والعمال كانوا يُسلِّمون أموال نواحيهم إلى الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، وهو الذى يؤدى رواتب الجنود بخلاف ما كان متبعاً فى غير مصر من أن أمراء الدولة وولاتها كانوا يجمعون لحسابهم أموال نواحيهم ويدفعون منها أموال فرق الجند التابعة لهم(وكلهم جند السلطان) ويرسلون إلى الخليفة أو السلطان قدراً ويحتفظون بالباقى . وكلا السياستين كانت ضارة بالناس فى نهاية الأمر .. والمهم هنا أن الفاطميين كانوا يجمعون من مصر هذه الأموال الكثيرة ثم ينفقون منها على جندهم الكثير فى حروبهم فى بلاد الشام خاصة . ومعظم أموال الفاطميين ضاعت فى حروبهم مع العباسيين والقرامطة ورؤساء نواحى الشام دون أن يصلوا إلى نتيجة تُذكر ، فقد كان سلطانهم على بعض نواحى الشام دائماً ضعيفاً وحتى جنوب الشام وفلسطين خاصة - والمفروض أنها كانت من أملاك الفاطميين - لم يكن لهم هناك سلطان حقيقى .

وكذلك كان إنفاق الفاطميين على قصورهم وخدمهم وحشمهم كثيراً جداً ، فقد كان أهل بيتهم - وكلهم أمراء - كثيرين ، ولكل منهم قصر أو أكثر حافلة بالخدم والحشم والجوارى ، وكانوا جميعاً ينفقون عن بذخ ومن غير حساب . هذا مع إهمال

(١) ناصرى خسرو ، سفر نامة ٩٤-٩٥.

المرافق ، فالترع والقنوات أُهملت ، والطرق لم يعد يُعْنى بها أحد ، فاقتصرت العناية على المرافق البلدية أى التى كان يقوم بها أهل النواحى دون السلطانية ، وهى الجسور والترع الكبيرة التى تمر فى عمالات كثيرة .

ونتيجة لذلك كله أن مصر الغنية أفلست وانتهى رخاؤها التاريخى الذى استمر من أيام الفراعنة ، وفى حكم الخليفة الفاطمى المستنصر أبى تميم معد (٤٢٧ - ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) نصل إلى القاع ، وهو ما يسمى بالشدة العظمى أى المجاعة الكبرى التى استمرت ثمانى سنوات ، وتفاصيلها معروفة شائعة ، وهى تُرد عادة إلى هبوط الفيضان سبع سنوات متوالية ، وهذا أمر مستبعد ، ولكن الحقيقة هى أن هذا الإفلاس كان نتيجة السياسة الفاطمية المالية والإدارية الفاسدة ، فإن عسف الناس ونهب أموالهم وسرقة الفلاحين مع إهمال المرافق ، كان لابد أن ينتهى إلى هذه النتيجة ، حتى طول حكم الخليفة المستنصر لا يرجع إلى استقرار الأمور ، بل يرجع إلى زهد الناس فى الخلافة ، فالخليفة كان مطالباً بأموال كثيرة جداً ، والعائد إليه قليل ، حتى أصبح - الخليفة المستنصر - كالمتسول .

وفى النهاية استعان الخليفة المستنصر ببدر الدين الجمالى حاكم عكا ، فأقبل إلى مصر سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م وتولى الوزارة ، وكان إدارياً حازماً عارفاً بشئون الإدارة والمال فتحسنت الأحوال وتوقف التدهور ، ولم يصل بدر الجمالى إلى تلك النتيجة إلا بعد أن تخلص من ناس كثيرين ، وأزهق أرواح المئات من الطفيليين الذين كانوا يحتكرون السلطان ويمتصون دماء الناس وثروة البلاد [١] .

وقد تحسن الحال بعض الشىء ، ولكن الدولة الفاطمية كان قد انتهى أمرها ودخلت فى دور النزاع الطويل والأخير ، ثم آل الأمر فيها إلى الفوضى الشاملة ووقوع الحروب بين الوزيرين شاور وضرغام وكلاهما من رؤساء البدو ، وفى عهد الخليفة الفاطمى الرابع عشر وهو أبو محمد عبد الله العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧هـ/ ١١٦٠ - ١١٧١م) كان أمر نور الدين محمود الأتابك قد اشتد ، ووصلت حركة النهوض والتجمع الإسلاميين إلى ذروتها بتوحيد الموصل والشام ، ثم تمكن نور

---

(١) انظر ابن ميسر ، تاريخ مصر ، تحقيق أيمن فؤاد سيد . القاهرة ١٩٨١ ص ٣٩ وما يليها .

الدين من ضم مصر إلى جبهة الكفاح ضد الصليبيين على يد قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وعلى يد صلاح الدين كانت نهاية الدولة الفاطمية وبداية الدولة الأيوبية.

وللمؤرخين القدامى والمحدثين آراء شتى فى الدولة الفاطمية معظمها لا يقوم على تحقيق للواقع ، بل يعتمد على أقوال يصعب إثبات صحتها ، ولكن حقيقة الدولة الفاطمية هى التى ذكرناها ، وما ظهر من رخاء فى أيامها الأولى وما خلّفته من مبانٍ ومنشآت قليلة وفقيرة تؤيد ما ذكرناه ، وهو أن الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر كانت تجربة سياسية غير موفقة وإن كانت طويلة المدى ، ومعظم ما نسمعه خلاف ذلك يرجع إلى اهتمام الفاطميين بالوصاية لأنفسهم ومذهبهم ، فكان تاريخهم على جملته كالطبل ؛ دوى بعيد ومحصول قليل .

ونختتم هذا الكلام بأن الدولة الفاطمية التى قامت على أساس الدعوة الإسماعيلية الواسعة تجلت فى النهاية عن دولة شديدة الانحراف عن الطريق الإسلامى السوى ، ولهذا فقد كان نجاحها الدينى قليلاً جداً ، ونتيجة لذلك كان نجاحها السياسى واهياً أو وهمياً ، والدولة الفاطمية كانت لهذا فى دورها المغربى شبحاً زائلاً ، وفى دورها المصرى وهماً ضخماً لا يقوم على حقيقة .

وإذا كانت الدول الحسنية الهاشمية التى ذكرناها دولاً عربية جديرة بأن تكون قرشية من حيث طريقة مواجهة المشاكل بالصدق والبسالة كما رأينا فإن الدولة الفاطمية بأسلوب دعوتها المعوج ، وطريقة خداع دعاتها للناس وجمعهم أموال الناس باسم الزكاة ثم اختفاء إمامهم فى مكان لا يعلمه إلا كبير الدعاة المسمى بالوصى ثم قيام الدولة فى أفريقية قياماً مفتعلاً ، كل هذه كانت أساليب غير عربية ولا قرشية ، أما دورها فى تاريخ مصر فدور سيء ، وهى الدولة التى قضت على رخاء هذه البلاد، ولهذا فقد كانت الدولة الفاطمية دولة غير عربية أو قرشية فى روحها وتنظيمها وأساليب حكمها وعلاقاتها بالناس ، وعلى الرغم من أننا نعرف عن الدولة الفاطمية أكثر مما نعرف عن غيرها لوفرة الكتابات عنها ، فإنها لا زالت إلى الآن - وبحسب معلوماتنا - من أغرب الكيانات السياسية التى قامت فى عالم الإسلام وأبعدها عن روح الإسلام والعروبة وطبيعة القرشية .

دُوَل الشرفاء فى مكّة وَالمدينَة والحجَاز وَمَا تفرّع عنها :

فى التنظيم الإدارى للدولة العباسية لأول قيامها كان الحجاز ولاية واحدة يليها رجل واحد مركزه المدينة وتتبعه مكة ، ولكن كان لكل من البلدين والٍ أو أمير . ولكن عندما ضعفت الدولة العباسية انقسمت ولاية الحجاز إلى إمارتين : إمارة مكة، وكانت تتبعها قرى الطائف وجدة وبطن نخله وعُسْفَان ومرّ الظَّهران ، وإمارة المدينة وكانت تتبعها قرى خيبر وفدك وينبع وناحية الفُرُع ووادى القرى ومدين وتيماء صاعداً إلى أيلة . وبصفة عامة تستطيع أن تقول إن الحجاز كان إمارتين : شمالية قاعدتها المدينة وتشمل الحجاز ، وجنوبية قاعدتها مكة وتشمل تهامة وتمتد حتى حدود عسير .

وولايـة الحجـاز كلها - بإمارتيها معاً - هى الولايـة الإسـلاميـة الوحيـدة التى حكمها - باستثناءات قليلة - قرشيون خلال صدر الإسلام ، وأول والٍ على مكة كان عتاب بن أسيد من بنى أمية ، وكان العباسيون يولون على الحجاز رجالاً من بينهم ، وانتقل مركز الولاية إلى مكة . وإلى سنة ٢٧٩ كان الحجاز تابعاً لبغداد ، إذ فى هذه السنة فوض الخليفة المعتمد ، أبو العباس أحمد بن المنتصر (رجب ٢٥٦- رجب ٢٧٩هـ/ يونيو ٨٧٦- سبتمبر ٨٩٢م) أمر ولاية الحجاز إلى أحمد بن طولون والى مصر ، فبدأت تظهر فى التنظيم الإسلامى العام الوحدة السياسية التى عُرِفت بدولة مصر والشام ويدخل فيها الحجاز ، واستمر ذلك حتى سنة ٣٥٨هـ ٩٦٩م عندما انفرد بالسلطان فى إمارة مكة جعفر بن محمد بن الحسين أول شرفاء مكة الذين ظلوا يتعاقبون على حكم مكة حتى سنة ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م عندما دخلت مكة وبقية الحجاز قوات الملك عبد العزيز آل سعود ، وكان الحسن بن على آخر أشراف مكة قد وُلِّىَ فى ٦ شـوال سنـة ١٣٢٦هـ/ أكتوبـر ١٩٠٨م من قِبَل السلطان عبد الحميد ، ثم استقل وأعلن نفسه ملكاً على الحجاز وخليفة على المسلمين - كما سنرى .

والحسين بن على هو آخر خط طويل من الشرفاء الذين كانت لهم الصدارة فى مكة حتى فى أيام العباسيين ، وهؤلاء الأشراف هم الموسويون ، وهم من سلائل موسى ابن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب . والغالب عليهم - حتى قيام الدولة

الأيوبية وامتداد سلطانها على الحجاز - المذهب الزيدى ، وهو أقرب المذاهب الشيعية إلى مذاهب أهل السنة .

أما إمارة المدينة فكانت أقل أهمية من الناحية الإدارية من إمارة مكة ، وأمراؤها كانوا حسينيين من أحفاد الحسين بن على بن أبى طالب ، والغالب على أمرهم - من بداية العصر الفاطمى على الأقل - المذهب الإسماعيلى ، ولهذا فقد كانت علاقاتهم بالفاطميين دقيقة ومعقدة أيضاً ، ومعظم أمرائها من آل المهنا من أحفاد الحسين بن على ، وساءت العلاقات بينهم وبين الحاكم بأمر الله الفاطمى ، مما جعل الحاكم بأمر الله الفاطمى يأمر أمير مكة الحسن بن جعفر السليمانى أن يُغير على المدينة ويضم إمارتها لإمارته ففعل سنة ٣٩٠هـ ، ولكنها عادت إلى آل مهنا بعد ذلك واستقلت عن مكة . وعندما ينتهى أمر الدولة الفاطمية وتجىء الدولة الأيوبية ينضم إليهم آل مهنا ، فيقوم الأيوبيون بتثبيتهم فى الإمارة ، وواحد من أمرائهم وهو أبو فليتة حضر مع صلاح الدين فتح أنطاكية سنة ٥٨٤هـ وخلفه عليها ابنه سالم ، ووقعت بينه وبين قتادة أمير مكة حرب ، انهزم فيها سالم بن أبى فليتة ، وانتصر فيها سالم عند ذى الحليفة سنة ٦٠١ هـ .

وقد توجه سالم هذا إلى مصر سنة ٦١٠ هـ ليشكو من عدوان قتادة على بلاده ، ومات فى طريق عودته إلى المدينة وخلفه ابنه شيحه الذى ظل على المدينة حتى قُتِل سنة ٦٤٧هـ وخلفه ابنه عيسى ، ولم تدم إمارته أكثر من سنتين . إذ قبض عليه أخوه جماز سنة ٦٤٩هـ وظل جماز يحكم حتى سنة ٧٠٤هـ . ومعظم أمراء المدينة من الأشراف من عقبه . ولم يكن لأمراء المدينة من الهيبة والاستقرار ما كان لأمراء مكة ، وواحد منهم وهو الحسن بن الزبير اعتدى فى يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول سنة ٩٠١هـ على الحرم النبوى ونهب ما فى الحجرة الشريفة من نفائس . وبعد ذلك بقليل سنة ٩٢٣هـ . تدخل الحجاز تحت حكم سلاطين الدولة العثمانية فيجعلون إمارة المدينة تابعة لإمارة مكة ، ويثبتون ولده الثانى محمد بن بركات الذى سنتحدث عنه ، ولم يختف ذكر آل مهنا من إمارة المدينة مع ذلك ، ولكن أمرهم خمل إلى جانب

الموسويين أصحاب مكة . وهم الذين يعنوننا فى هذه الدراسة ، لأن الملْك يتصل فى أعقابهم فى المملكة الأردنية الهاشمية إلى اليوم .

* * *

ونعود الآن إلى مكة لنتتبع خيط الموسويين فنجد أنهم بيوت متوالية فكلها ترجع إلى نسب حَسَنى واحد ولكنها دول متعاقبة ، وأول من يؤسس بيتاً قوياً طويل العمر منهم هو جعفر بن محمد بن الحسن الذى ينتهى نسبه إلى محمد بن موسى بن عبيد الله ابن الحسن بن على بن أبى طالب . وأجداد هذا كانوا فى اليمامة وقاعدتهم كانت الخضرمة من قرى اليمامة ، كما جاء فى معجم البلدان لياقوت . وقد ظلوا إلى أيام محمد وإبراهيم ويوسف وعبد الله أبناء الأخيضر محمد .

وقد بقى فرع منهم باليمامة وهم أولاد يوسف بن الأخيضر محمد . فأما عبد الله ابن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وهو أخو يوسف الذى ذكرناه ، فقد هاجر بعض أولاده إلى أذنة من بلاد الثغر بين دار الإسلام وبلاد الروم ، إلا ثلاثة من أبناء عبد الرحمن بن أبى الفاتك عبد الله بن داوود بن سليمان بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وهم : نعمة وعبد الحميد وعبد الحكم (أو عبد الحكيم) ، وقد سكنوا أَمَج قرب مكة ، ومنهم جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وجعفر هذا تغلَّب على مكة وتولى أمرها فى أيام محمد بن طغج الأخشيد والى مصر المستبد بها ، ثم ثبَّته فيها القائد جوهر والى المعز لدين الله الفاطمى بعد دخوله مصر واستقراره فيها سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م .

وجعفر بن محمد بن الحسن هذا هو أول من أنشأ أسرة ثابتة فى إمارة مكة من الأشراف الحسنيين ، وكل بيوتهم التى ستتوالى على حكم مكة - والحجاز كله أحياناً - من عقبه .

وبيوت أشراف مكة الحسنيين كثيرة ، وكذلك كانت الحروب بينهم والمحن التى مرت عليهم سواء من خلافات بعضهم مع بعض ، أو تدخُّل أصحاب مصر من

الفاطميين والأيوبيين والمماليك فى شؤونهم ، ولكن الإمارة ظلت فيهم من منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى / إلى أن استولى الملك عبد العزيز بن سعود على مكة وبقية الحجاز سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م .

وفى نفس الحركة استولى الملك عبد العزيز على عسير من الأدارسة وهم فرع من الأدارسة الحسنيين الذين قامت دولتهم التى ذكرناها فى المغرب الأقصى . فقد عاد رجل منهم إلى الجزيرة العربية ونزل عسير وفيها أقام دولة إدريسية . وفى إمارة أبى الفتوح الحسن بن عيسى بن جعفر بن محمد بن الحسن الذى تولى أمر مكة سنة ٣٨٤هـ وقع بينه وبين الفاطميين خلاف شديد ، إذ أرسل إليه الخليفة الحاكم بأمر الله سجلاً ليقرأه فى المسجد الحرام وفيه البراءة من أبى بكر وعمر وسب بعض الصحابة وبعض أزواج النبى ﷺ ، فأبى من ذلك وأعلن الخروج على طاعة الفاطميين ، ثم خطب بالخلافة لنفسه وتلقب بالراشد بالله ، وسار إلى مدينة الرملة بفلسطين ، فدخل فى طاعته صاحبها ثم انضم إليه حسان بن مفرج شيخ قبيلة طىء ، فخافه الحاكم بأمر الله ، وبعث إلى عماله وأنصاره فى فلسطين وشمال الجزيرة يحرضهم عليه ، وتخلى عن أبى الفتوح الكثير من أنصاره ، فوجد أبو الفتوح أن الحكمة تقضى بأن يكتفى بإمارة مكة ، وظل أميراً على مكة إلى سنة ٤٣٠هـ .

وخلفه شكر بن أبى الفتوح الذى تمكن من ضم المدينة إلى إمارته وظل يحكم إلى سنة ٤٥٣هـ ، وكان شكر بن أبى الفتوح هذا شاعراً وبطلاً مغامراً ،وهو صاحب الجازية بطلة إحدى حلقات ملاحم الهلالية ، والأسطورة تقص كيف عشق شكر بن أبى الفتوح الجازية وهى من بنى هلال وكيف احتال عليه بنو هلال ليفرقوا بينه وبين الجازية ، فهام على وجهه عشقاً ، وحاول دخول مكة فأبى صاحبها أن يفتح له الباب، وظل يقول الأشعار فى صاحبته حتى مات ، والجازية أيضاً لم تسعد بحياتها بعد تغريبها عن أهلها إلى مصر ثم إلى المغرب ، فقد زوَّجوها من رجل آخر رغماً عنها ، ولم تلبث هى الأخرى أن ماتت .

والحقيقة التاريخية هى أن شكر بن أبى الفتوح مات أميراً على مكة من غير عقب فتولى أمرها عبد له يسمى تاج المعالى ، فتغلب عليه وانتزعها من يده رجل يسمى

محمد بن أبى الفاتك ، وهو من أحفاد سليمان بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب .

وفى سنة ٤٥٥ هـ دخل مكة على بن محمد الصليحى وهو رأس أسرة الصليحيين من أنصار الفاطميين ، ولكن بنى جعفر استطاعوا العودة إلى إمارة مكة بصلح من الصليحيين فى نفس السنة ، وكان الذى تولاها منهم القاسم بن محمد من أبناء جعفر ابن محمد بن الحسن ، وقد حكم من سنة ٤٨٧ إلى سنة ٥١٨ هـ .

وابنه أبو فليته بن القاسم بن محمد تمكن من إنشاء بيت بنى فليته ، وهم أكبر بيوت أشراف مكة من أبناء جعفر بن محمد المذكور ، وقد تعرضت مكة فى أيام بنى فليته لمحن شتى من أشدها فتنة بين عيسى بن فليته وعمه القاسم بن هاشم بن فليته ، وفى ولاية عيسى بن القاسم بن فليته انقرضت دولة الفاطميين فى مصر وحلَّ محلها صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧هـ منشىء الدولة الأيوبية ، وهو فاتح القدس ومعيد مذهب السنة إلى مصر ، ونتيجة لذلك قام الخليفة العباسى بتولية داوود بن عيسى بن فليته سنة ٥٧٠هـ .

وتعاقب على مكة ولاة من رجال العباسيين والأيوبيين حتى تمكن أبو قتادة وهو من أبناء جعفر بن محمد بن الحسن من تولِّى أمر مكة سنة ٥٩٧هـ ، وبعد منازعات طويلة مع رجال الأيوبيين استقر أمر مكة فى يد راجح بن قتادة سنة ٦٣٠هـ بصلح مع على بن رسول من أمراء أسرة بنى رسول السنيين فى اليمن وهم حلفاء الأيوبيين وأتباعهم ، وقد طالت الفتنة بين راجح بن قتادة وبنى رسول من ٦٣٠ إلى ٦٦٧هـ . حتى انقضاء أيام الأيوبيين ، وقد بذل غانم بن إدريس بن قتادة جهداً عظيماً فى المحافظة على إمارته ، ولكن أمره لم يستقر لأن جُماز بن شيحة صاحب المدينة ، تقرب من سلطان مصر المملوكى فولاه مكة إلى جانب المدينة ، وما زال أبو نُمى محمد الملقب بالأول حتى استرد إمارة مكة فى طاعة المماليك .

وفى سنة ٧٠١هـ . تنازل محمد أبو نمى الأول عن الإمارة لابنيه رُميثة وحميضة ، فنافسهما أخواهما عطيفة وأبو الغيث ووقعت الحرب بينهم . وأيد الظاهر بيبرس

عطيفة وأبا الغيث وأعطاهما حكم مكة وأخذ حميضة ورميثة معه إلى مصر سنة ٧٠١هـ . عندما حج إلى بيت الله . ولكن الفتنة لم تنته فعاد رميثة وحميضة إلى الحجاز ، وحاربا أخويهما ، وانتهى الأمر بانتصار رميثة بن أبى نمى محمد ٧٣٥هـ . وخلفه ابنه عجلان بن رميثة سنة ٧٤٥هـ .

وتستمر فترة الفوضى والاضطرابات والحروب الأهلية فى إمارة مكة حتى حصلت الإمارة سنة ٨٢٩ هـ لبركات بن الحسن بن عجلان بن رميثة فأنشأ بيت بركات .

وفى أواخر أيام قانصوه الغورى آخر سلاطين المماليك صار الأمر إلى أبى نمى محمد بن بركات الملقب بأبى نمى الثانى فأقره السلطان سليم الأول العثمانى بعد غزوه مصر سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م . وهنا تدخل إمارة مكة فى فترة طويلة من القلق والفوضى نتيجة للمنافسات الشديدة بين أمراء الحسنيين من ناحية وسوء سياسة العثمانيين من ناحية أخرى ، ولكن الأمر ظل فى معظم الأحيان لبنى جعفر بن محمد ابن الحسن .

وتولى مكة الأمير غالب بن مساعد بن سعيد بن سعد من أحفاد بركات بن الحسن ابن عجلان الذى ذكرناه . وقد تولى سنة ١٢٠٢هـ وفى أيامه ظهر أمر الحركة السلفية فى نجد ، وتطلع الإمام محمد بن سعود لضمّ الحجاز إلى إمارة نجد ، وتمكن من ذلك ، فطلبت الدولة العثمانية من محمد على باشا والى مصر التوجه بحملة إلى الحجاز، لاسترداد الحرمين الشريفين من أيدى السعوديين السلفيين ، فأرسل محمد على أُولى حملاته المشهورة على الحجاز ثم توجه بنفسه سنة ١٢٢٨هـ ، ومنها أرسل ابنه إبراهيم إلى نجد ، ومن نجد وصل المصريون إلى الأحساء والقطيف ، وتولى أمر الحجاز ونجد خورشيد باشا سنة ١٨٣٠م ، واستمر إلى سنة ١٨٤٠ م. عندما انسحبت القوات المصرية من الجزيرة العربية .

ولم تنقطع إمارة بنى جعفر الحسنيين أثناء الحكم المصرى ، فقد رشح محمد على الشريف عون من أحفاد الشريف غالب لإمارة مكة وأيدته الدولة العثمانية ثم خلفه

حفيده محمد بن عبد المعين بن عون (١٢٧٢هـ) . وخلفه ابنه عبد الله باشا بن محمد ابن عبد المعين ، وهو أول شريف من أشراف مكة ، يحمل لقب الباشوية وخلفه فى سنة ١٢٩٤ ابنه حسين باشا بن محمد بن عبد المعين وهو الشهير بالشهيد .

ثم تولى الإمارة عبد المطلب بن غالب سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م ، ولكن الأمر عاد إلى بيت الشريف عون سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢ فتولاها عون الرفيق باشا بن محمد بن عبد المعين بن عون ، وخلفه فى سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م الشريف على باشا بن عون الرفيق ، وفى سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م خلفه ابنه الشريف حسين بن على آخر شرفاء مكة العلويين .

* * *

وإنما بذلتُ هذا الجهد الشاق فى تتبع تاريخ هذا البيت الحسنى العلوى الهاشمى القرشى وتصاريف الزمان به ، لأخرج ببضع حقائق تهمنا ونحن ندرس تاريخ قريش: الأولى هى حيوية ذلك البيت الحسنى ، فقد استطاع البقاء تلك القرون الطويلة وصمد لكل ما مر به من المحن دون أن يفنى أو يتلاشى ، فالتاريخ الذى أوجزت هنا حافل بالمتاعب مثقل بالمحن والدماء والموت ، ولكن حيوية البيت الحسنى العلوى كانت أقوى ، وكلما أهلك الدهرُ منهم بيتاً نشأت بيوت واتصل النسب ، ولا مدخل هنا لتزييف النسب ، فإن العلويين يحفظون تواريخ بعضهم البعض بغاية الحرص والدقة ، هناك وفى كل قطر عربى أو إسلامى نقابة العلويين التى تحفظ شجرات الأنساب وتبعد الدخلاء . وأفراد هذه النقابات يتصل بعضها ببعض ويعرف المتخصصون فيها بالمضاهاة والمقارنات حقيقة كل نسب يُدَّعَى .

هذا إلى جانب اعتقادنا فى القاعدة التى طالما ذكرناها هنا ، والتى تقول : إن التثبت العلمى الذى لا يداخله الشك فى صحة أى نسب أمر بالغ العسر ، وكما توجد دلائل كثيرة تؤكد صحة الأنساب فهناك شواهد أخرى تؤكد عدم صحتها ، والأسلم هنا هو التسليم بصحة النسب المدَّعى إذا لم يكن هناك دليل قاطع على كذبه ، وخاصة إذا أيد صحته شيوخ نقابات العلويين أو الأشراف ، إلى جانب ذلك لابد أن نذكر أن

العلويين لديهم الوسائل التى يحمون بها نسبهم من الدخلاء ، فكل خطوط الأنساب محفوظة متتبعة ، والمتخصصون يعرفون نقط الضعف كلها ، كما سنرى فى حالة الشرفاء السعديين الذين سيذهب منافسوهم الأشراف العلويون المناصرون لهم إلى تزييف نسبهم .

والحقيقة الثانية : هى كثرة الخلافات والمنازعات بين رجال البيت الواحد ، وقد رأينا أن أمر أحد من الشرفاء لا يكاد يستقر فى الإمارة ، حتى ينجم له المنافسون والأعداء من إخوته وبنى عمومته خاصة ، وهذا مع قلة المكافأة فى النهاية ، فإننا نفهم حرص آل الهايسبورج أو البوربون على الوصول إلى رئاسة البيت ، لأن الرياسة هنا تعنى أملاكاً وقصوراً وأموالاً وعروشاً كبيرة ذات جاه وسلطان ، ولا يقارن بشىء من هذا كله ما يحصل عليه صاحب الإمارة فى مكة ، ففى تلك العصور لم تكن هناك أموال كثيرة ولا ثروات طائلة ، ولا قصور ولا عروش ذات سلطان واسع وأراضٍ عظيمة ، والمتنافسون على العروش هناك يتنافسون حول مغانم تستحق العناء .

أما فى الحجاز فلا أراض ولا خيرات ولا مغانم ، إنما هو شرف ولاية الحجاز والاضطلاع بمسئولية أمان الحرم والحجاج ، وحتى هذا كان المتنافسون جميعاً أضعف من أن يقوموا به ، ولم يكن الحَرَمَان أشد تعرُّضاً للأذى مما كانا عليه فى تلك العصور ، خاصة وأن مكة كان لها أمير والمدينة لها أمير ، والحاج الذى كان يريد أن يزور الحرم النبوى بعد الحج كان لابد له من مغامرة ، لأنه ينتقل من ولاية أمير إلى ولاية أمير هو عدو له ، وقبائل الأعراب الجائعة تحوم حول الحرمين وبينهما باحثة عن فرص للطعام والمال ، لأنها فى تلك العصور كانت فى حالة جوع دائم . هذا كله إلى جانب تدخلات المصريين من أيوبيين ومماليك ثم الأتراك ، وكل ذلك كان يجعل الإمارة بلاء على صاحبها وعذاباً ، فما الذى جعل أولئك الناس يُستهلكون فى سبيل الإمارة مع تراكم الأخطار وترادفها مع قلة الجدوى فى النهاية ؟

والجواب على هذا السؤال عام ، ولا يمكن إلا أن يكون عاماً ، لأنه يتلخص فى حُمى الرياسة التى استولت على العرب جميعاً بعد الإسلام وظهور الخلافة والإمامة وهما مُلْك فى النهاية . فقد كانت الرياسة عند العرب الجاهليين شرفاً وسؤدداً وحكماً

قبلياً جماعياً مع تحمل تكاليف الشرف والرياسة ، وكلها نفقات مالية أو عينية باهظة ، من طعام وماء وعطاء وتحمُّل ديات وما إلى ذلك ، وقد رأينا بعض رؤساء قريش منهم المطلب بن هاشم ، ينزل عن الرياسة لابن أخيه عبد المطلب دون تردد ، وأبو طالب فى رياسته كان أشبه بكبير المشيخة ولا سلطة فى يديه ولا حل ولا عقد ، لأن القبيلة كانت تعتمد فى قوتها العسكرية على أفرادها وهم أبناء أعمام ، ولا يمكن قهرهم على التقاتل فى سبيل هذا الشيخ أو ذاك .

أما بعد الإسلام فقد دخلنا فى طور الدول والأموال الكثيرة والعسكر المأجور ، وفى صراع الخلافة والإمارة تقطعت الأرحام وضعف العصب ، وبريق السلطان والغنيمة - وهو بريق كاذب فى معظم الأحيان - أعشى العيون وأمات القلوب ، فاندفع الطامعون فى الرياسة فى هذا السباق المحموم نحو الموت . وقرون بأسرها ضاعت فى هذا التسابق الأعمى نحو الهلاك والجرى وراء سراب القوة والسلطان. وفى كل هذه القصة الطويلة الحزينة لم يبق حياً فى أجسام المتقاتلين إلا عصب الهاشمية ، وما عدا ذلك فقد عصفت به رياح المطامع ، والحجاز لم يعرف الهدوء والاستقرار إلا بعد أن دخل الدولةَ السعودية الجامعة للشمل ، الضامنة للأمن والأمان ، والحامية للحرمين.

ونتابع قصة هواشم مكة إلى نهايتها . وسنتحدث هنا بتفصيل ، لأن التفاصيل بهذا الخصوص موجودة ، وهى مليئة بالعبر والدروس .

قلنا : إن الشريف حسين بن على آخر من تولى إمارة الحجاز من أسرة عون وهى آخر أسر شرفاء مكة الحسنيين. وكانت ولايته سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م. فى ظروف عسيرة كانت تتطلب من المعرفة بأحوال السياسة العالمية أكثر مما كان هو وأفراد بيته يملكون ، ففى تلك السنة كانت ثورة رجال الاتحاد والترقى على السلطان عبد الحميد وإرغامهم إياه على إعلان الدستور ، وكان على باشا والد الشريف من رجال السلطان عبد الحميد والعاملين معه فيما كان يدعو إلى عمله من العودة بالدولة العثمانية إلى نصابها الأول : دولة إسلامية عامة مجاهدة كما كانت قبل أن يستولى السلطان سليم

على مصر والشام والعراق وانتزاعه الخلافة الإسلامية لبيته ونقلها إلى استانبول وجعلها خلافة عثمانية .

كان الأتراك العثمانيون أنفسهم يفكرون فى اتجاه آخر ، هو اتجاه عصبية تركية طورانية تسخر كل شعوب الإسلام لخدمة الشعب التركى الطورانى وكان الشريف على قد حصل على الباشوية ورتبة الوزارة ودخل فى صراع السياسة العثمانية الذى أدى إلى قيام رجال جمعية الاتحاد والترقى بخلع السلطان عبد الحميد ، وتولية عبد المجيد مكانه . وإذا كان الشريف على قد فهم دهاليز السياسة العثمانية ، فإنه قطعاً لم تكن لديه فكرة عن تيه السياسة العالمية الذى كان إذ ذاك يمر بأكثر الحلقات تعقيداً فى تاريخه .

فقد كان ضعف الدولة العثمانية قد وصل إلى آخر دركاته ، وبدا بوضوح أن تفكك الدولة العثمانية على وشك الوقوع . وكانت أوروبا كلها تنتظر وقوع ذلك من أمد طويل ، وكانت روسيا تتحفز للانقضاض على الأستانة وما بقى للدولة العثمانية من أراض لافتراسها والقضاء عليها قضاء نهائياً . ولم يكن يحول بين روسيا وذلك إلا انجلترا وفرنسا اللتان وقفتا لها بالمرصاد . وكانت فرنسا قد اقتطعت من بلاد الدولة العثمانية ايالة الجزائر منذ ١٨٣٠م ، ثم تونس سنة ١٨٨١م ، وفى نفس الوقت كانت بريطانيا قد استولت على مصر فى سبتمبر ١٨٨٢ ، وبعد ذلك بسنوات نزلت قوات إيطاليا أراضى ايالة طرابلس الغرب ، وهى ما يعرف الآن بليبيا (عدا فزان) وبدأت تتوغل فيها رغم مقاومة سنوسية تركية شارك فيها بعض العرب والمصريين .

ولم يبق للدولة العثمانية فى الحقيقة إلا الأستانة والأناضول وبلاد الشام والعراق .

وكان واضحاً أن أوروبا مقبلة على حرب كبرى ، لأن اتجاه ألمانيا القيصرية كان يخيف انجلترا وفرنسا ، ولعب ادوارد السابع ملك بريطانيا دوراً سيئاً فى توجيه بلاده، نحو حلف فرنسا ومعاداة ألمانيا مدفوعاً فى ذلك بعوامل الحقد على ابن عمته القيصر ولهلم قيصر ألمانيا وبروسيا ، وكانت السياسة البريطانية تتخبط تخبطاً خطراً لأن انجلترا كانت تحمل على كاهلها عبء امبراطورية واسعة وتستغل بلاد هذه

الامبراطورية أسوأ استغلال ، وشعور العداء نحو الإنجليز كان عاماً فى الدنيا كلها بما فى ذلك الولايات المتحدة . ولا شك أن الاتفاق الودى الذى عُقِد بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ ، وبمقتضاه أُطلقت يد انجلترا فى مصر ، وفرنسا فى المغرب الأقصى ، كان اتفاقاً خسيساً غير أخلاقى ، فقد كان فى الحقيقة اتفاقاً بين لِصَّين كبيرين هما فرنسا وبريطانيا اللتان كانتا تتحدثان - كلاماً - عن الحرية والعدالة .

وهذا الاتفاق بالذات كان من أكبر أسباب الحرب العالمية الأولى ، لأن المانيا التى كانت تطمع فى أن يكون لها نصيب من المغرب الأقصى تأكدت الآن أن فرنسا وانجلترا لن تسمحا لها قط بأن يكون لها أى نصيب فى البحر المتوسط . وهذا بدوره دفع ألمانيا إلى التقرب من تركيا ، ونتيجة ذلك انتعشت مشروعات سكة حديد الحجاز والاهتمام بالطرق والتفكير فى مد خط بغداد والبصرة ، وقد ظهرت هذه النزعة بصورة خاصة فى أيام السلطان عبد الحميد الذى كان يميل بعواطفه نحو ألمانيا ، ويشك الشك كله فى انجلترا وفرنسا .

وقد أعلن السلطان عبد الحميد الدستور العثمانى سنة ١٨٧٦ ، وهذا الدستور يجعل الدولة العثمانية دولة اتحادية بين الأجناس التى تتألف منها ، واعترف الدستور بحقوق هذه الأجناس ، وأكبرها وأهمها بالنسبة لعبد الحميد كانوا العرب .

من هنا جاء اهتمام الدولة العثمانية بالحجاز والعراق وبلاد الشام ، وأهم ناحية من بلاد العرب أهمية للدولة العثمانية كان الحجاز بسبب وجود الحرمين الشريفين فيه . لهذا اهتمت الدولة بأمير الحجاز الشريف على بن عون بن محمد بن عبد المعين فمنحته لقب الوزارة والباشوية .

وعندما خلف الحسين بن على والده سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م كان يقارب الستين ، وكان له أربعة أولاد : على وعبد الله وفيصل وزيد ، وعلى كان مريضاً بالسل فلم يكن له دخل بشئون الإمارة فأصبحت ولاية العهد لعبد الله الذى تعلم فى الآستانة ونشأ فى ظروف جديدة سادت الدولة العثمانية فى أيام السلطان عبد الحميد ، إذ أصبح للعرب مكانة ممتازة فى الدولة العثمانية ، ولم يكن ذلك صادراً عن تقدير حقيقى من

السلطان عبد الحميد للعرب ، فقد كان عبد الحميد رجلاً جامد العواطف ، مهتماً فى المقام الأول بشئون عرشه المزعزع ودولته المتهاوية ، وكان رجال الاتحاد والترقى على شاكلته فى ذلك .

وعبد الله كان دائماً القوة الحقيقية التى وجهت شئون إمارة مكة ، لأن الحسين والده كان رجلاً مسناً واسع المطامح ، ولكن لم تكن لديه الجرأة على عمل شىء كبير . أما ابنه عبد الله فقد وُلِد مغامراً ، وتعلم الكثير من اتصاله بالبلاط العثمانى مثله فى ذلك مثل صنوه نورى السعيد . ورجال السلطان رشحوا عبد الله لعضوية برلمان الدولة العثمانية الجديد وهو مجلس المبعوثان ، وهذا فتح لعبد الله آفاقاً واسعة ، فقد كان شديد المكر وكان لا يشك فى أن الدولة العثمانية تقترب من نهايتها ، فرشح والده فيما بينه وبين نفسه ليكون خليفة المسلمين الجديد عندما تسنح الظروف. وكان أبوه يسايره فى مطامعه بحذر ، ولهذا فقد اكتفى بإعلان نفسه ملكاً ، وتصور فعلاً أنه ملك له مكانة فى العالم الإسلامى ، ولكنه كما قلنا كان حذراً ، فلم يقطع صلاته بالدولة العثمانية . وقد ظهر فيما بعد أنه كان يتلقى إعانات مالية من أربع جهات أوروبية فى نفس الوقت : ألمانيا وبريطانيا وحكومة الهند وتركيا (وظل يتقاضى إعانة مالية من ألمانيا حتى منتصف ١٩١٥م).

وفى فبراير ١٩١٤ وقبيل قيام الحرب العالمية الأولى زار الأمير عبد الله القاهرة وهو فى طريقه إلى الآستانة لحضور مجلس المبعوثان ، ونزل ضيفاً على الخديوى عباس حلمى وكان مثله ثعلباً ماكراً . وزاره الفيلد مارشال كتشنر فى قصر الضيافة ، وفى اليوم التالى ذهب عبد الله لرد الزيارة . وكان يعرف خطورة ما هو مقدم عليه ، فقد قال هو فيما بعد إنه تعمد أن يرد الزيارة فى الثالثة من بعد ظهر اليوم التالى ، لأن القاهرة كانت حافلة بجواسيس الأتراك ، ولكن هؤلاء الجواسيس كانوا شديدى الحرص على نوم القيلولة ، فلا يستيقظون ويواصلون أعمالهم إلا مع المغرب . قال وزموند ستيوارت فى كتاب : تاريخ الشرق الأوسط الحديث [١] :

«جلس كتشنر مع ضيفه يتناولان الشاى على انفراد ، وفى أثناء ذلك أثار بأدب

(١) الترجمة العربية بقلم زهدى جاد الله ص ١٩٤ .

قضية الحجاز ، فقد كان المعروف أن حال الحجاز مضطرب لأن رجال تركيا الفتاة الذين كانت خطتهم تجديد الامبراطورية ، قرروا توسيع سكة حديد الحجاز بمدِّها من المدينة إلى مكة ، ومدَّ فرعين لها من المدينة إلى ينبع ومن مكة إلى جدة وعيَّنوا حاكماً جديداً على الحجاز ليتعاون مع الأمير حسين . بيد أن الأمير حسين كان يكره هذا الحاكم ، ويعارض توسيع السكة الحديد لأنها تُقوِّى سيطرة الأتراك على مكة ، وقد أيده سكان الحجاز فى ذلك لأن السكة الحديدية تجعل الحج أسهل وأقلَّ كلفة ، وهم يريدون الإفادة من بقائه صعباً وباهظ التكاليف » .

انتهز عبد الله فرصة إثارة قضية الحجاز فوجَّه إلى كتشنر السؤال الصريح التالى : «ما هو موقف بريطانية من ثورة عربية ؟»

كان عبد الله يرتدى ثياب الأمير الابن الثانى لرئيس دينى ، ادعاءاته أكثر من قوته. أما كتشنر ، الأميرال والفيلد مارشال ، فقد كان أهم حاكم فى الشرق الأوسط ، ولا يستطيع أن يجيب عن سؤال صريح بصراحة ، ولذلك اكتفى بقوله «إن الصداقة التقليدية بين تركيا وبريطانيا تجعل من المستحيل على البريطانيين أن يتدخلوا فى شئونها الداخلية . والاضطراب فى الحجاز شأن داخلى » .

«بيد أن عبد الله فى رده على هذا الجواب الرسمى ذكَّر كتشنر بما قامت به حكومة الهند البريطانية من بسط حمايتها على الكويت وقال : ألم يكن ذلك تدخلاً فى الشئون العثمانية ؟ ابتسم الرجل الإنجليزى ابتسامة حذرة ، انتهت بها المقابلة دون أن يَعِدَ بشىء » .

« على أن كتشنر كان يعرف العالم الإسلامى. بدأ كضابط صغير بإلقاء نظرة إلى فلسطين ، وقاد الجيش المصرى بلقب سردار فاحتل السودان وعمل فى الهند حيث كان عدد من خير الفرق العسكرية مؤلفاً من المسلمين ، فرأى أن الانشقاق العربى قد يكون مفيداً لبريطانيا فى ظروف خاصة . لذلك أمر السكرتير الشرقى ، رونالد ستورس ، بتقديم يخت بريطانى لنقل عبد الله إلى تركيا ، وأن تستمر الاتصالات غير الرسمية بهذا المبعوث الصريح من مكة » .

« لم تكن مكة أبداً مركزاً للخلافة ، ولكنها احتفظت بمقام فريد بين المدن الإسلامية لأنها المكان الذى وُلِد فيه النبى ، وفيها الكعبة محج المسلمين وقبلتهم فى صلاتهم ، أى : أن مقامها دينى ، لا سياسى ولا ثقافى . أما عائلاتها المتزعمة التى تدعى التحدر من نسل الحسن بن الحسن بن على ، ويُعرف أفرادها بالهاشميين ، فقد أصبح بعض رجالها زعماء إقطاعيين يزداد نفوذهم كلما ضعفت السلطة الخارجية وبالعكس ».

« حاول السلطان عبد الحميد أن يخفف من أهمية الهاشميين لا أن يتملقهم ، ولكن الخمس عشرة سنة التى قضاها الأمير حسين فى القسطنطينية جعلت منه رئيس إقليم كبير المقام . كان العقل الذى وراء لسانه الطلق حاداً . قدَّر ذلك العقل ضعف الامبراطورية العثمانية إذ انفصلت عنها الشعوب البلقانية واحداً بعد الآخر ، وقدَّر قوة بريطانية التى أخذت مصر ، وازدهار الخديوى الذى يحميه البريطانيون ، ودرس العالم الذى يحكم من ساحة البرلمان . وبعد أن قدر ودرس سأل نفسه سؤالين: كيف يمكن أن يحافظ على وضعه ؟ وكيف يمكن أن يُحَسِّنَه ؟ لم يعامله عبد الحميد بخشونة، بل إن هذا السجان أظهر له الاحترام وجعله مستشاراً له . ولكن عبد الحميد الذى كان يود العرب قد انتهى . وأظهر رجال تركيا الفتاة شيئاً قريباً من العنصرية التركية حتى قبل أن يتسلموا الحكم ، فعاملهم العرب بالمثل » .

« هنا تناقض آخر :كما أن دعاة القومية التركية كانوا من أطراف الامبراطورية ، كذلك أصبحت القومية العربية - غير المعروفة فى صحراء العرب - عقيدة رجال من لبنان وسوريا . فقد أنشأ اللبنانيون الصحف ودور النشر الكبيرة فى مصر ، ومنهم من ألَّف المعاجم والموسوعات باللغة العربية ، وأعجب كثيرون منهم بما فعله لورد كرومر فى مصر فأرادوا توسيع الاستقلال الذى حصلوا عليه سنة ١٨٦٠ ولو عنى ذلك تحالفاً مع دولة غربية ضد الأتراك ، وكان تأكيدهم أنهم عرب لا عثمانيون قد سهَّل عليهم الانفصال عن امبراطورية لها ارتباط وثيق بالإسلام » .

« أمَّل الأمير حسين الطامح أن يستعمل الانشقاق والكبرياء العربيين فى تحقيق أحلامه ، وقد كانت مرنة تمتد من مشروع معتدل لمملكة مستقلة فى الحجاز إلى

تصورات خيالية ، هى فرض ضريبة على كل المسلمين فى العالم بصفته خليفة عربياً » .

وإذا كان العنصر الأساسى فى السياسة هو حسن التقدير ، تقدير مركزك وقواك ومراكز الآخرين وقواهم ، وتقدير الظروف العامة التى تحيط بك واحتمالات النجاح أو الفشل فى كل خطوة تخطوها ، فإن الحسين بن على لم يحسن تقدير أى شىء ، فقد تصوَّر نفسه فى وضع أكبر بكثير من حقيقتها ، فما كان فى الحقيقة إلا والياً صغيراً من الولاة الخاضعين للدولة العثمانية ، وإذا كان هو والى الحجاز ، فإنه لم يكن بحال راعى الحرمين ، لأن راعيهما كان خليفة آل عثمان ، وهو نمثله فحسب ، ثم إن أمور الحرمين كانت مضطربة جداً أثناء ولايته ، والعدوان على الحجاج كان مستمراً حتى قلَّ عدد الحجاج إلى درجة استوقفت الأنظار ، وكان الأعراب فى الحجاز فى حالة من الضنك والعَوَز جعلتهم يعتدون مرة بعد أخرى على الحجاج دون أن يستطيع الحسين بن على حيالهم شيئاً ، بل إن تفكيره لم يزد على تفكيرهم كثيراً .

وعندما أدخل العمال الأتراك خط سكة الحديد من القدس إلى مكة فالمدينة ، كان الحسين بن على يحرض الأعراب على تدمير القضبان والمحطات ، وقد رحبوا بذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن سكة الحديد ستسهل الحج على الحجاج وتوصلهم إلى مكة والمدينة آمنين ، فلا يستطيعون ابتزازهم وفرض الإتاوات عليهم ونهبهم ، ولم يكن تفكير الحسين بن على بأعلى من ذلك ، فقد كان يخشى أن سكة الحديد تسهل على الأتراك الوصول إلى الحجاز ومكة والمدينة ، وإنه لمما يدعو إلى التعجب ويثير الألم أن سكة حديد الحجاز التى أنشأها الأتراك قام بتدميرها الأعراب ، ومن ورائهم الشريف حسين .

وهذه أيضاً صورة من صور سوء التقدير ، فإن الحسين بن على كان فى حيرة دائمة من أمره لا يدرى إلى أى ناحية يميل ، مع أنه رسمياً موظف عثمانى صدر بتعيينه فرمان عثمانى بتاريخ أول نوفمبر ١٩٠٨ . وهو يتمنى أن يعلن استقلاله عن الدولة العثمانية ، ولكنه فى نفس الوقت يقود حملة على الإدريسيين أصحاب عسير ، ويخطب فى أبها مُذكِّراً الناس بأفضال العثمانيين عليهم .

وهنا نجد أن ابن سعود كان أوضح وأسلم نظراً من الشريف حسين ، فقد أدرك

بذكائه أن الأتراك لن يستطيعوا السيطرة على نجد أو مساعدة أهلها ، وأن الإنجليز لن يجرؤوا على دخول الجزيرة ، ولكنهم أقوياء وعندهم أموال وأسلحة ، فوقف على الحياد بين الأتراك والإنجليز طول الحرب ، بل إن الإدريسى صاحب عسير كان أسلم موقفاً من الشريف حسين ، فقد وقف على الحياد أيضاً ولكن فى المعسكر العثمانى . أما مبارك الكبير أمير الكويت فقد دفعه الخوف من العثمانيين من ناحية ومن ابن سعود من ناحية أخرى إلى طلب وضع بلاده تحت الحماية البريطانية ليضمن سلامة بلاده ، وقد رحبت بريطانيا بهذا الطلب وأدخلت الكويت تحت حمايتها لتستطيع مواجهة أى خطر ألمانى أو عثمانى على رأس الخليج .

وفى مثل تلك الحالة التى كان فيها الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية ، فإن أحسن ما كانت الوحدات السياسية الصغرى تستطيع عمله ، هو السكون والحذر والاجتهاد فى النجاة من الضوارى المتقاتلة ، فقد كان الصراع فعلاً صراع ضَوارٍ ، وانجلترا وفرنسا كانتا توَّاقتين إلى سحق ألمانيا والانقضاض على تركيا وتمزيقها وروسيا كانت فى حالة سيئة جداً ، وكل شىء كان يدل على أن ساعة القيصرية قد دنت ، وذلك لم يمنعها من التوغل فى بلاد ما وراء النهر والوصول إلى نهر جيحون .

وفى مثل هذه المعمعة ما عسى أن يستطيع الحسين بن على وأولاده ؟ ومع ذلك فقد ألقى الرجل وأولاده أنفسهم فى الميدان . وكان يدير المعركة ضد تركيا فى الشرق الأوسط السير هنرى مكماهون الذى أصبح مندوباً سامياً لبريطانيا فى مصر مكان كتشنر الذى عُيِّن قائداً عاماً للقوات البريطانية ، وانتدبوه فى مهمة للذهاب إلى روسيا التى انضمت إلى الحلفاء . وكان طريق بحر إيجة والمضايق التركية قد أقفل ، فذهب فى بارجة عن طريق بحر الشمال ، وهناك غرقت به البارجة فى نفس اليوم الذى أعلن فيه الحسين بن على الثورة على الأتراك .

وكانت انجلترا وفرنسا فى حالة سيئة جداً فى أوائل ١٩١٤ ، فإن الألمان على الجبهة الغربية كانوا فى عنفوان قوتهم ، أما على الجبهة الشرقية فكانت روسيا تتلقى هزيمة بعد هزيمة ، ولهذا فإن الشريف حسين بن على وابنه عبد الله لم يعرفا مقدار الفرصة التى أتاحاها لبريطانيا ، عندما عرضا فكرة ثورة عربية تكسر ظهر القوة التركية فى

الشرق الأوسط ، وتوقف خطر زحف الأتراك على مصر ، وكانت بريطانيا إلى جانب ذلك فى حاجة إلى أى نصر يرفع معنوياتها ومعنويات حلفائها . واللورد اسكويت رئيس الوزراء استقال ليحل محله جورج لويد السياسى الماكر ، وأخذ معه رجلاً ذا ميول يهودية هو آرثر جيمس بلفور وزيراً للخارجية .

وهنا كانت فداحة الخطأ الذى وقع فيه الشريف حسين وابنه عندما وافقا على إعلان الثورة على الأتراك ، وكانت فى الحقيقة ثورة هزيلة جداً لم يشترك فيها إلا أقل من ألفى جندى مسلحين بأسلحة بالية ، ومعظم هؤلاء كانوا سوريين وفلسطينيين ممن استهوتهم فكرة إقامة دولة عربية تشمل جزيرة العرب وبلاد الشام وربما العراق . وكان جمال باشا حاكم ولاية الشام ، ومن أكبر رجال حركة الاتحاد والترقى قد أحس خلال ١٩١٥ أن عرب الشام متمردون على العثمانيين ، فقبض على زعماء المتذمرين وشنقهم علناً فى دمشق فأثار ذلك ثائرة بقية أهل الشام ، وتشجع الملك حسين وابنه عندما تقاطر على مكة هؤلاء الغاضبون ومعظمهم كانوا فلسطينيين ، وهذا ما أثار غضب الأتراك ، لأن الدولة العثمانية لم تسىء قط إلى عرب فلسطين إلا بالقدر الذى كانت تسىء به إلى كل رعاياهم ومنهم الأتراك .

وهؤلاء الشوام - ومعظمهم فلسطينيون - هم الذين تحمسوا للثورة ، وأرسل الملك حسين ابنه فيصل ليكون مع أولئك الثوريين ، وهناك كوَّن لنفسه الحاشية التى ستقف إلى جانبه فى دمشق أولاً ، ثم فى بغداد .

وفى أثناء ذلك أدرك الجنرال هنرى مكماهون المغزى الذى يكمن وراء الثورة العربية على الأتراك ، ومنذ البداية وافق على مطالب القوميين العرب موافقة شكلية ، فلم يكن فى الحقيقة إلا استعمارياً بريطانياً ، وجد أمامه جماعة من المتحمسين والخياليين تملأ رؤوسهم - فى رأيه - خيالات وأوهام ، فوافقهم عليها حتى يُدْخِلهم الشَّرك ، وافق على تأييد قيام دولة عربية دون أن يلتزم بحدود ، بينما كان القوميون العرب يتمسكون بحدود واضحة لدولتهم : من أطنة ومرسين إلى جزيرة العرب ومن شرقى إيران إلى خط ممتد من رفح إلى العقبة . وقد أدرك العرب ما وراء تشجيع السير هنرى مكماهون لهم من خداع .

وهنا نعود إلى دزموند ستيوارت فنجده يقول - مصوِّراً الوضع فى الجانب العربى بالنسبة إلى فيصل بن الحسين والمترددين عليه : (ومن ضمنهم كثيرون من الضباط العرب فى الجيش العثمانى) « ومن هنا جاء التحول إلى الثورة فى سنة ١٩١٥ . ذلك بأن جمال باشا ، حاكم الشام العثمانى ، اكتشف خلايا انفصالية فى سوريا ولبنان ، فحاكم أعضاءها محاكمة سريعة وشنقهم فوراً وعلناً ، وأثارت جثث العرب المتدلية من المشانق العرب المترددين ، وجعلتهم يكفون عن اعتبار الأتراك إخوانهم فى الدين ، وما كان فكرة أصبح قضية تستحق أن يقاتلوا فى سبيلها ويموتوا » .

« لكن حتى حين ثارت العواطف من جهة ، وألحت الحاجة من جهة أخرى ، اشتدت المساومة بين العرب الذين وصفهم سترابو قبل ألفى سنة بأنهم تجار ، وبين البريطانيين الذين وُصِفوا مؤخراً بأنهم أصحاب متاجر ، وكانت المساومة تتعلق بالمنطقة التى على البريطانيين أن يعتبروها بعد الحرب دولة عربية مستقلة ، ويعترفوا بحدود هذه الدولة » .

قرر الشريف حسين أن يستثير العرب فى الشمال ، واتصل بأعضاء جمعيتين سريتين إحداهما مدنية والأخرى عسكرية ، تسعى كلتاهما للانفصال عن الأتراك . كان مبعوثه إلى دمشق ولده الثالث فيصل . أصر الشوام - والكلمة تشمل جميع أولئك الذين يعيشون فيما دُعِى فيما بعد سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن - وهذا الخطاب من رجل ، المفروض أنه محترم مثل الجنرال هنرى مكماهون يعطينا فكرة عن المستوى الأخلاقى الذى كان رجال الاستعمار مستعدين للهبوط إليه . فهذا كلام أفَّاق كذاب غشاش لا جنرال فى جيش وممثل دولة عظمى ، كتبه وهو يعرف أنه كذب خالص ليخدع به شيخاً جاهلاً بشؤون الدنيا ليخدعه ويُسخِّره لغاية حقيرة ، وهى خيانة أهل دينه وطَعْنهم فى الظهر أملاً فى سراب خادع . ونعود إلى دزموند ستيوارت ، فنقرأ كيف كان مكماهون يتصرف ، فقد قرر إرسال خطاب إليهم يشجعهم ويعدهم بإنشاء الدولة العربية التى كانوا يحلمون بها عن نية سيئة وخداع ، قال دزموند ستيوارت بهذا الخصوص :

« وافق القوميون العرب على قيدين لاستقلالهم : معاهدة دفاعية تربط الدولة العربية المقبلة ببريطانيا ، ومنح بريطانيا أفضلية فى هذه الدولة » .

« لم يكن ممثل بريطانيا فى القاهرة رجلاً قوياً متخفياً وراء « القنصل العام » الضعيف ، بل كان سير هنرى مكماهون المندوب السامى ، المسؤول عن محمية مصر الذى يمثل جيلاً يرى أن قيام الشعوب الملونة بحكم نفسها أمر لا يزال مستحيلاً ، ولذلك تردد مكماهون فى الموافقة على الأهداف الثورية البعيدة للقوميين العرب ، ولكن المأزق الحرج الذى كانت فيه بريطانيا ، جعل ما عُرِف « برسائل مكماهون » بين مكة والقاهرة شيئاً ممكناً ، تلك الرسائل التى منعت بريطانيا نشرها عشرات السنين . فى ذلك الوضع الحرج لجأ مكماهون فى مخاطبة الحسين إلى عبارات التبجيل كما يتضح من مقدمة أول رسالة بعث بها إليه :

« إلى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية ، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية ، السيد ابن السيد ، والشريف ابن الشريف ، السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين ، سيد الجميع ، أمير مكة المكرمة ، قبلة العالمين ، ومحطّ رجال المؤمنين الطائعين عَمَّتْ بركته الناس أجمعين».

بيد أن الحسين الذى كان بائع سجاد بارعاً ، لم يَفُتْه إدراك المراوغة وراء هذا الحشو من الكلام . ذلك أن مكماهون ركز على حلم الحسين بالخلافة كى يتفادى مسألة الحدود . وقد عاتبه بقوله : « إن هدفنا ، أيها الوزير المحترم ، التأكد من أن الأحوال الضرورية لمستقبلنا يمكن ضمانها على أساس من الحقيقة لا العبارات والألقاب المنمقة » .

« فى ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ أرسل مكماهون المذكرة التى حددت الشروط التى سيبدأ العرب بموجبها ثورتهم فى اللحظة الملائمة . أوضح المندوب السامى أولاً أن تردده الظاهر فى بحث مسألة الحدود (أشار إليها فى رسالة سابقة) « بالتفاصيل » إنما سببه شعوره بأن ذلك البحث لم يَحِنْ وقته ، لكن بما أن الحسين يعده أمراً جوهرياً ، فإنه مفوَّض من قِبَل حكومته البريطانية بإعطاء العرب بعض الضمانات » .

« تقول المذكرة : إن بريطانيا تتعهد بالاعتراف باستقلال العرب وبالدفاع عنه ، ضمن المنطقة التى حددها الشريف حسين مع بعض التحفظات التى يتعلق أهمها

بالأراضى فى آسيا الصغرى وسوريا وبالكويت ، الذى تربطه ببريطانيا معاهدة ، وحماية الأماكن المقدسة والاستعانة بالمستشارين البريطانيين ، ونوع خاص من الإدارة لمقاطعتى بغداد والبصرة » .

« حُدِّدت التحفظات الخاصة بآسيا الصغرى وسوريا فى الجملة المهمة التالية : إن مقاطعتى مرسين واسكندرونة ، وأقساماً من سوريا واقعة إلى الغرب من مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب ، لا يمكن أن يقال إنها عربية صِرْفة ، ولذلك يجب أن تُستثنى من التخطيط المقترح » .

« كان سير مكماهون فى استثنائه مرسين واسكندرونة لا يفكر فى تركيا التى انتهت إليها هاتان المقاطعتان فيما بعد ، بل فى فرنسا حليفة بريطانيا ، التى كانت لديها خطط لها . ثم إنه بتحديده الغامض لأقسام من سوريا غربى مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب ، إنما كان يشير إلى المنطقة التى ليست لدى فرنسا خطط لها فحسب ، بل لها أيضاً ارتباطات قديمة بها منذ أيام لويس الرابع عشر ، وهو جبل لبنان الذى أكثرية سكانه من الموارنة المسيحيين الذين وإن كانوا يتكلمون العربية ليسوا من أصل عربى، الذين وإن كان الدين يربطهم بروما والتاريخ بفرنسا ، تمتع الموارنة فى متصرفيتهم ، بسبب تدخل الامبراطور نابليون الثالث باستقلال ذاتى ستين عاماً (قُضِى على هذا الاستقلال حين نشبت الحرب العالمية الأولى) . لم يذكر المندوب السامى فلسطين التى كان العرب تسعة أعشار سكانها ، ولو أنه أراد استثناءها من المنطقة العربية التى ستصبح مستقلة ، لأشار إليها باسمها التقليدى أو بوضعها العثمانى : النصف الشمالى جزء من ولاية بيروت ، والنصف الجنوبى متصرفية القدس».

« تم التوصل إلى اتفاق حول هذه الخطوط فى أوائل ١٩١٦ ، وبدأت الثورة فى يونيو . جاءت الثورة متأخرة . لو أن الانفصال العربى لقى تشجيعاً مبكراً ، وفى مناطق أكثر حساسية من الحجاز ، فى سوريا مثلاً الواقعة على حدود الأناضول الجنوبية ، لربما ألحق بالأتراك ضرراً أكبر . ذلك بأن معظم الجيش العثمانى الرابع فى دمشق كان من العرب ، وكان كثيرون من ضباطه فى الجمعية العسكرية السرية التى

كانت تعمل للانفصال عن تركيا . ولكن جمال باشا اكتشف فى سنة ١٩١٥ إلى أى حدٍّ كان الثوريون العرب يُضعفون معنويات رجاله ، فنقل الجنود العرب فوراً إلى غاليبولى حيث أحسنوا القتال ، وأحضر إلى سوريا مكانهم جنوداً يتكلمون اللغة التركية » .

« أما المنطقة الثانية فهى العراق - الذى كان مكتب القاهرة مهتماً به - وهو ولاية عثمانية أخرى أهم للأتراك من الحجاز . هنا ضُيِّعت الفرصة أيضاً . غزا العراقَ جيشٌ من الهند البريطانية ، وكان يُظَنُّ أن هذا الوادى الخاوى صالح للفائض من سكان الهند ، ولذلك كان قواد الجيش الغازى غير مضطرين إلى التسرع فى عرض الاستقلال على العراقيين ، كما كانوا ينتظرون أن يكون غزو العراق عن طريق البصرة نزهة ، أما الواقع فكان نشوب حرب طويلة ضارية وقف فيها العراقيون يراقبون » .

« كان ثمن الثورة بالنسبة إلى العرب غالياً فى المدى الطويل والقصير ، دفعوا جميعاً هذا الثمن ، مع أن أقل من عشرة بالمائة منهم اشتركوا فى الثورة . حتى فى الحجاز لم يكن الرأى العام وراء الحسين ، ولكن خروجه على الأتراك وما تبعه من فرار الضباط العرب وبعض الضباط الأكراد من الجيش العثمانى حطم ما تبقى من الفكرة العثمانية وفتح الطريق فى المدى البعيد إلى تركيا التركية . أما فى المدى القصير فإن جمال باشا قضى بقسوة على الذين شعر نحوهم بالازدراء الذى شعر به البريطانيون نحو الإيرلنديين الكاثوليك ، فعذب فى فلسطين العرب الذين افترض أنهم موالون لقضية الحلفاء وشنقهم ، وعَرّض لبنان الذى لا شك فى تعاطفه مع الغرب لمجاعة أودت (بناء على إحصاء قام به المبشرون الأميركيون) بنحو ربع سكانه أو ثلثهم » .

« كانت الثورة العربية ذات قيمة كبيرة للحلفاء ، ذلك بأن رَفْض أمير أقدس مدينة إسلامية للجهاد ، ساعد على منع حركة تمرد فى الجيش الهندى . ثم إن احتلال مكة وجدة اضطر الأتراك وحلفاءهم الألمان إلى إرسال الجنود والذخائر إلى الجنوب وإهمال خططهم الأخرى ضد قناة السويس . بدا عرب الحجاز فى نظر رونالد ستورس جبناء وغير منظمين . لا ريب أنهم كانوا يختلفون عن الجيوش الأوروبية ، ولا يعرفون شيئاً عن الفنون الحربية الغربية ، لأن خبرتهم كانت مقصورة على

الغارات البدوية التقليدية التى يزيد فيها الصراخ على القتل . يضاف إلى هذا أن المنازعات بين قبائلهم جعلت توحيدهم صعباً ، حتى إذا وُحِّدوا أصبح من الصعب قيادتهم وإبقاؤهم فى مكان واحد . ولكن قوتهم كأفراد واعتزازهم برجولتهم جعلاهم يبدعون فى نوع من القتال قام فيه الاندفاع والبراعة ، لا روح الفريق والانضباط ، بدور رئيسى . كانت قبائل الحجاز صورة لأبطال هذا القرن ، للمغاوير ورجال العصابات ، الذين ظهروا فيما بعد .

« كانت الثورة العربية ذات قيمة للحلفاء ، وخصوصاً لبريطانيا التى بالغت فى تقدير فتح جبهة جديدة فى بحر مجهول ، فجاءت الثورة مقوياً حين كانت المعنويات العامة منخفضة . إن نهوض أبناء الصحراء الشجعان لتأييد بريطانيا عوَّض من المذابح المستمرة فى الجبهة الغربية »[1] .

وليت الحسين بن على وأنصاره كسبوا فخر هذا العمل الذى قاموا به فى نظر الإنجليز والفرنسيين الذين قدموا إليهم - دون أن يتنبهوا - خدمة لا تقدر . « ذلك أن البطل الحقيقى لهذه المأساة كان - فى نظر الغرب - رجلاً إنجليزياً غريب الأطوار هو الكولونيل لورنس . كان مثله فى ذلك مثل الجنرال تشارلس جوردون الذى دفع حياته ثمناً لاستيلاء بريطانيا على السودان دون أن يكون هذا قصده . فإن الكولونيل لورنس نشأ ابن سِفاح من مربية إنجليزية عاشرت واحداً من كبار الملاك الإنجليز من أصل أيرلندى ، وبسببها هجر امرأته وبناته الأربع ، فخرج الولد إلى الدنيا دون مركز اجتماعى محترم ، وإن كان لدى أمه من المال ما أنفقت منه لتخريج ابنها ضابطاً . ثم ذهب إلى بلاد العرب مغامراً ، وهناك وجد مجالاً لولعه بالظهور بمظهر الشخصية العجيبة ، وقد زعم أنه معجب بالعرب والبدو وطريقتهم فى الحياة ، وما كان فى الحقيقة إلا استعمارياً كذاباً ، وقد تواترت أخباره إلى انجلترا ، وكذلك صوره فى ملابس عربية كان يتعمد أن تكون جميلة غالية الثمن ، كان قفطانه دائماً من الحرير الخالص ومن فوقه جبّة أنيقة من الصوف ويضع على رأسه عقالاً عربياً أحمر مذهباً ، وفى حزامه خنجر ذهبى . وكان ضابط مخابرات ، وكان رؤساؤه فى المخابرات

(١) دزموند ستيوارت ١٩٨ - ٢٠١ .

البريطانية يعطونه ما يريد ، وكان تأثير الذهب الذى كان يوزعه على فقراء البدو كبيراً ، أما كبار العرب فقد زعم لهم أنه مسلم مبغض للإنجليز ، وكان يتكلم عربية غير صحيحة ، ولكنه بدا على أى حال للأمير عبد الله بن الحسين وأخيه فيصل وسيلة جيدة للاتصال بالإنجليز » .

وإنما لجأتُ لنقل تلك الفقرة الطويلة من مؤلف غربى هو دزموند ستيوارت لأننى أردت أن أُقرِّب القارىء قدر المستطاع مما يمكن أن يكون حقيقة ما جرى . ونحن هنا نتتبع تصاريف الأمور مع أسرة عربية هاشمية ، ألقت بنفسها فى بحر لا تحسن السباحة فيه ، ولا هى قد رأت أعماقه ، فكانت النتيجة ما رأيت من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تنتج عن قلة التدبر ، فإن حركة الحسين بن على وأولاده لم تأت الذين قاموا بها بجزء ولو ضئيل من الآمال التى علَّقوها عليها .

وإذا قلنا : إن الأمر انتهى آخر المطاف بتتويج فيصل ملكاً على العراق فى ٢٣ أغسطس ١٩٢١ بعد إخراجه من دمشق ، وإعلان عبد الله أميراً على ما عُرِف إذ ذاك بشرق الأردن ابتداء من أبريل ١٩٢١ بصورة مؤقتة ، ثم نهائية فى مايو ١٩٢٣م ، فإن نظرتنا إلى ما سُمِّى بالثورة العربية لا ينبغى أن تقف عند هذا الحد ، بل علينا أن نستطرد مع الأحداث لتكتمل لدينا صورة هذه الثورة وما أدت إليه ، ففى يوليو سنة ١٩٢٢ قرر مؤتمر الصلح الأوروبى فى سان ريمون وضع فلسطين والأردن تحت الانتداب البريطانى .

ومن ذلك الحين يبدأ فى الحقيقة إنشاء إسرائيل ، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن بريطانيا كانت تتفاهم مع الصهيونية العالمية على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود ، وفى النهاية أصبحت إسرائيل هى معضلة العرب الكبرى ، وهى نتيجة مباشرة لهذه الخطوة الخاطئة التى خطاها الحسين بن على ، لأن تركيا لم يكن قد انقطع الرجاء فيها ، والجنرال الألمانى ليمان فون ساندرز استطاع بالفعل أن يعد نواة جيش تركى تشترك فيه فرق عربية ، وفى معارك جاليبولى فى سنة ١٩١٥ تمكَّن قائد تركى تتلمذ على يد ليمان فون ساندرز من إحراز انتصار عظيم على الإنجليز والفرنسيين ، وهذا القائد هو مصطفى كمال الذى كان إلى ذلك الحين لا يسىء الظن بالعرب . وكان جمال باشا فى

بلاد الشام يستطيع على الأقل أن يهدد مركز الإنجليز فى مصر باستمرار. وكل شىء كان ممكناً أن ينزل بالإنجليز والفرنسيين قبل التدخل الأمريكى فى الحرب العالمية الأولى ، وروسيا كانت فى وضع سىء جداً أمام الألمان على الجبهة الشرقية .

وهنا ، فى ذلك الظرف قام الحسين بن على بحركته فهدم الجبهة التركية الشرقية هدماً ، وتبين الأتراك أن العرب هم سبب الهزيمة ، ورجل مثل مصطفى كمال نفض يده من العرب من ذلك الحين ، وكان لذلك نتائجه الوخيمة ، وترددت على ألسنة الأتراك عبارة « عرب خيانت » أى : خيانة العرب . وهكذا - وإرضاءً لمطامح حفنة من العرب وأوهام حفنة من الخطباء المتحمسين على منابر دمشق دفع العرب - كل العرب - ثمناً باهظاً ولا زالوا يدفعونه . و٥ يونيو ١٩١٦ كان دون شك يوماً مشؤوماً ، ففى ذلك اليوم غرق كتشنر ببارجته فى البحر الشمالى ، واجتمع ١٥٠٠ جندى من العربان وأطلقوا النار على الحامية التركية فى جدة ، وأعلن الحسين بن على الثورة على الأتراك، وهجمت قوة عربية على المبانى الحكومية فى جدة . وتقدمت قطع من الأسطول البريطانى وأطلقت القنابل على الميناء مساعدة للحلفاء العرب ، وتلك هى بداية ما سماه « أمين سعيد » بالثورة العربية الكبرى .

لقد تقاسمت فرنسا وانجلترا ميراث الدولة العثمانية فى البلاد العربية (عدا الجزيرة) ، وحوَّلتها إلى مستعمرات تحت أسماء شتى ، وتربع أحد أبناء الحسين بن على ملكاً على العراق ، وأصبح ابن ثانٍ هو عبد الله أميراً على شرق الأردن وكلاهما تابع لبريطانيا ، أما سوريا فقد أصبحت مستعمرة فرنسية وإن كان وضعها الرسمى أنها بلد تحت الانتداب ، أما لبنان فقد احتلته فرنسا تحت نفس الاسم ، وبدأت تُحدِث فيه تغييراً جوهرياً ، وهذا التغيير أصبح فيما بعد من أكبر مشاكل لبنان : تقديم الأقلية المارونية على بقية طوائف السكان واختصاصهم بالتعليم والعناية ، وإفهامهم أنهم ليسوا عرباً ، بل فينيقيون كاثوليك لا ينتمون إلى عالم العرب بل إلى عالم الغرب ، وظن الموارنة أن ذلك فيه خير كثير لهم ، ولم يفطنوا إلى أن ذلك سيجعلهم فى يوم ما فى وضع شاذ غير مقبول ، لا قومياً ولا عقلياً ، فإن الأمور تتجه دائماً بطبعها إلى التوازن، ولا يصح فى النهاية إلا الصحيح ، وإلى يومنا هذا يعانى لبنان من هذا الوضع غير الطبيعى الذى فرضته فرنسا ولا تزال تؤيده .

ومع ذلك ، وباستثناء ما فعلته فرنسا بلبنان - فقد تبين مع الزمن أن الاستعمار مرض قابل للشفاء ، أما البلية العضال فهى ما حدث لفلسطين ، فإن اليهود كانوا فى ذلك الحين ، أى أثناء الحرب العالمية الثانية قد أحسوا أن فرصة تحقيق حلم تيودور هيرتسل قد حانت ، فالإنجليز فى حالة يُرثى لها من الإفلاس والإرهاق ، وأى معاونة من الماليين اليهود كان لها تأثيرها ، وكانت البيوت المالية الصهيونية قد بلغت درجة خطيرة من القوة نتيجة للمتاجرة فى السلاح وإقراض المال لدول الحلفاء بأسعار عالية.

وتنبَّه إلى ذلك صهيونى واسع الذكاء هو حاييم وايزمان ، وهو روسى من مواليد مدينة مينسك ، وكان يتقن الروسية والألمانية والعبرانية والبديشية (إلى جانب الإنجليزية والفرنسية) ولكن ميله إلى الثقافة الألمانية كان عظيماً ، مثله فى ذلك مثل أفراد أكبر كتلة يهودية فى أوروبا ، هى كتلة يهود ألمانيا . وكان يهود روسيا أكثر عدداً ولكنهم كانوا فى وضع سيىء بسبب نفور الروس منهم واضطهادهم إياهم ، وقد تعلم حاييم وايزمان فى سويسرا ، واتصل أثناء تعليمه بكل الماليين اليهود فى أوروبا واتصل بصهيونى أمريكى خطر هو لويس براند آيس مستشار الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون .

وعندما أصبح لويس براند آيس رئيساً للمحكمة العليا فى الولايات المتحدة سنة ١٩١٦ ، وهى ثالث وظيفة كبرى فى الإدارة الأمريكية ، أصبح فى وضع يمكنه من التأثير بصورة مباشرة فى السياسة الأمريكية ، اتصل به حاييم وايزمان ، وبدأ الاثنان العمل مشتركين مع بقية يهود أوروبا فى تحقيق الحلم الذى كان تيودور هيرتسل قد مات دونه ، وهو إنشاء دولة إسرائيلية فى فلسطين ، وبإيعاز من حاييم وايزمان وافق اللورد بلفور على مسودة تصريحه المشؤوم فى ١٨ يوليو ١٩١٦ ، واشترك فى المؤامرة رجال بنوك : روتشيلد ، ولوسيان رولف ، وكلود مونتفيورى ، وسير ماتيو ناتان ، وصمويل مونتاجيو ، وكلهم من كبار الماليين ، وانجلترا باعت فلسطين لليهود لقاء المال .

وفى ٢ نوفمبر ١٩١٧ صدر تصريح بلفور ، وما كان من الممكن إصداره أبداً أيام

السلطان عبد الحميد الثانى ، لأن هذا الرجل الذى يحمل عليه العرب حملة ظالمة رفض أن يمنح اليهود أى حق فى فلسطين ، عندما عرض عليه ذلك تيودور هيرتسل عن طريق وسيط صهيونى يسمى نفلسكى فى سنة ١٨٨١ ، وكانت تركيا إذ ذاك غارقة فى الديون ، إذ قُدِّر دينها بمبلغ ١٠٦ ملايين من الجنيهات الذهبية ، وقد عرض مالى يهودى وهو صمويل موناجيو أن تتولى البنوك اليهودية معاونة تركيا للتخلص من ديونها فى مقابل أى تصريح من السلطان يعطى اليهود الحق فى الهجرة إلى فلسطين واستيطانها بجماعات كبيرة ، وكان حاييم وايزمان وأخوه صمويل متلهفين على ذلك لكى يُخلِّصوا يهود روسيا من الوضع الذى كانوا فيه .

ويقول وايزمان فى مذكراته : إن السلطان لو كان وافق لأطلقت روسيا فى السنة الأولى مليون مهاجر صهيونى إلى فلسطين ، ولكن السلطان رفض ، وجاء رفضه وثيقة كافية لرفع مقام هذا الرجل فى أعيننا ، قال لنِفلسكى : إذا كان هيرتسل صديقك بقدر ما هو صديقى فانصحه ألاَّ يتقدم خطوة أخرى فى هذا الشأن . لا أستطيع أن أبيع قدماً واحدة من البلد ، لأنه ليس ملكى بل ملك شعبى ، لقد حاز شعبى هذه الدولة وغذاها بدمه ، وسنغطيها مرة أخرى بدمائنا قبل أن نسمح بتمزيقها . لقد قدَّمت فرقتان من مقاتلى سوريا وفلسطين تضحية كبرى وقاتلتا معنا دفاعاً عن بِلِفنا ، وهلك رجالها إلى آخر رجل دون أن يتراجع واحد منهم أو يستسلم، بل ماتوا جميعاً دفاعاً عن دولتهم . إن الشعب التركى هو مالك هذه الدولة لا أنا . لا أستطيع التخلى عن جزء منها ، ويستطيع اليهود أن يوفروا أموالهم . حين نقسم الدولة قد يأخذون فلسطين مقابل لا شىء ، لكن الآن لن نقسم إلا جثتنا لأننى لن أسمح أبداً بتشريحنا أحياء » .

وهذه العبارة - التى تعين فى الحقيقة موقفاً - تنطق بأن سلالة أورخان وعثمان - مهما حدث لها كانت سلالة نبيلة ، وهى أقرب إلى الروح التركية التى نعرفها من كل مواقف مصطفى كمال ، لأن مصطفى كمال لم يحرر فى النهاية إلا أرض الأناضول من الاستعمار، وكل بلاد الدنيا - التى هى أقل من تركيا - تحررت مع الزمن من الاستعمار ، لأن الاستعمار كان مرضاً له ظروفه ، وعندما زالت الظروف زال . أما

الماضى التركى الجليل الذى ازدراه مصطفى كمال وألقى به إلى الأرض فى سبيل مظهر من التفرنج ، كانت له أهميته الكبرى للشعب التركى ، ويكفى أن اليونان - وهى دولة من أصغر بلاد أوروبا حجماً - تستقل عن تركيا ولا ترضى بأن يكون أتراك قبرص مثلاً فى وضع اليونان فيها ، مع أن قبرص أولاً وآخراً أرض تركية ، وإنْ سكنتها أعداد كبيرة من اليونانيين ، ومن فجر الإسلام إلى معاهدة برلين ١٨٧٨ لم تخرج قبرص إلا فى النادر عن أرض الإسلام .

الذى يهمنا هنا هو أن نذكر أن مأساة فلسطين - إلى حد بعيد - نتيجة لما سُمِّى بالثورة العربية الكبرى ، وهى فى جملتها مظهر من مظاهر انعدام التقدير الذى ذكرناه عند العرب أوائل القرن العشرين . وإننا لنقرأ الآن أخبار إقامة دولة فيصل فى سوريا وما أحيطت به من حماس ساذج ، ثم دولته فى العراق التى لم يحكمها فى الحقيقة منذ قيامها إلى زوالها فى يوليو ١٩٥٨ إلا رجل واحد كردى الأصل هو نورى السعيد درس العسكرية فى المدرسة الحربية فى الآستانة فيما بين سنتى ١٩٠٨ و١٩١٢ ، ثم درس فى كلية الأركان هناك حتى سنة ١٩١٥ ثم اشترك فى الحرب البلقانية ، وفى سنة ١٩١٦ انضم إلى فيصل بن الحسين فى دمشق ، ثم فى بغداد . نورى السعيد تسلم فيصل من الكولونيل لورنس الذى كانت أوروبا تسميه صانع الملوك . ولكن مغامرة إنجليزية أخرى تسمى جرترود بل زعمت أنها هى التى صنعته ، وكتبت مرة من بغداد إلى أحد أصدقائها فى لندن تقول إنها لن تشترك بعد ذلك فى صنع الملوك ؛ لأن ذلك عمل شاق . وهكذا أصبحنا مضغة فى فم هذه السيدة .

* * *

ومرة أخرى أقول : إننى وقفت هنا هذه الوقفة الطويلة لأن هذه هى المرة الأولى التى نعرف فيها إلى درجة لا بأس بها من الدقة ، مدى الأضرار التى ارتكبها بناة الدول فى تاريخنا لكى يحوزوا الملك على حساب خسائر فادحة للشعب العربى . وإذا كنتَ من الذين يتألمون بسبب وجود الكتلة الإيرانية وسط الجناح الشرقى لدولة الإسلام ، وما ترتب على ذلك من الأضرار للأمة العربية على طول تاريخها ، فاعلم أن المسؤولين عن ذلك ليسوا هم الإيرانيون بل العرب ، لأن الإيرانيين كانوا قد

استعربوا إلى حد بعيد قرب نهاية الدولة الأموية ، ولغتهم الإيرانية كانت فى طريق الاختفاء .

ولكن البيت العباسى عندما دبر مؤامرة الاستيلاء على الحكم من الأمويين ، اختار أن يبث دعايته فى عرب خراسان ، وعلى رأس الدعاة وضع رجلاً فارسياً مجهول النسب مبغضاً للعرب ، هو أبو مسلم الخرسانى ، وهذا الرجل ضرب العرب بعضهم ببعض بتوجيه من إبراهيم بن على بن عبد الله بن عباس المعروف بإبراهيم الإمام . وأبو مسلم سخر من العرب واستعان عليهم برجال من الفرس ، مثل خالد ابن برمك وآل سهل ، وفوق المائة ألف عربى - كانوا نواة التعريب فى إيران - غادروا مواقعهم فى خراسان وما وراء النهر واتجهوا إلى الشرق ليقيموا دولة بنى العباس . وإيران خلت من هذه الكتلة العربية الضخمة ، وهى خميرة التعريب فتوقفت العملية وبدأت إيران تعود إيرانية .

وأسطورة أبى مسلم والفرس الذين أقاموا الدولة العباسية رفعت معنويات الفرس ، وثقة بنى العباس فى وزرائهم الفرس واعتمادهم على الجند الفارسى ، ثم تصفيتهم لمن أبقى عليه سيف أبى مسلم من العرب أعطى الدولة العباسية طابعاً فارسياً . ونواة التشيع الصغيرة تمت فى إيران حتى أصبحت ورماً خبيثاً ، واللغة الإيرانية انتعشت بفضل العرب والإسلام وظهر شعراء الفرس يؤججون هذه النار ، واللغة الفارسية أصبحت اللغة الغالبة على الجناح الشرقى لدولة الإسلام ، حتى سلاطين مغول الهند كتبوا بالفارسية .

والدولة الإسلامية العربية التى كانت قوية متقدمة على ضفاف البحر المتوسط أصبحت دولة آسيوية يسودها آسيويون ، وكانت مهمة الدولة الإسلامية الأولى هى إزالة الدولة البيزنطية من الوجود ليفتح الطريق أمام الإسلام إلى أوروبا والعناصر الصقلية ، فتأخر ذلك إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ، وتم على يد الأتراك بعد فوات الأوان ، فقد كانت الدولة البيزنطية قد قامت بمهمتها التاريخية الكبرى قبل أن تزول .. ونشرت الإسلام بين الروس الصقالبة وأهل شرق أوروبا ، وتحدد بذلك مصير دولة الأتراك العثمانيين قبل أن تقوم .

ولنذكر إلى جانب ذلك أن غرب الدولة الإسلامية كله ظل سنياً ، ثم لقد استعرب بفضل هجرات العرب وخاصة بنو هلال وبنو سليم بن منصور الذين قدَّموا لأمة الإسلام خدمة لا تُقدَّر ، ولولاهم لما كان لدينا ذلك المغرب العربى الزاهر السنى الخالص .

وقبل أن نترك دولة شرفاء الحجاز وما تفرع منها لابد أن نضيف أن الله عوضنا عن أخطاء الشرفاء الأول ، باعتدال ميزان الدولة الهاشمية فى الأردن منذ ١٩٥٢ عندما صار عرش المملكة الأردنية الهاشمية إلى الملك حسين بن طلال بن عبد الله بن الحسين . فهناك قام ملك هاشمى واسع العلم والثقافة والأفق السياسى يسوس مملكته الهاشمية بحكمة ، ويقودها وسط بحر متلاطم من العواصف فى مواجهة مصاعب لا تُتصور . وهنا نجد صورة جميلة من الهاشمية القرشية التى وصلت إلى أواخر القرن العشرين بسلام ، بعد أن مرت بأزمات ومهالك ومضانك كما رأيت فيما قصصنا من تاريخ أشراف مكة . هنا شهادة صادقة بعبقرية قريش وقدرتها على مغالبة الأيام . وفى الفصل التالى عن دول الشرفاء فى المغرب الأقصى سنرى مصاديق أخرى على هذه العبقرية القرشية الهاشمية .

دُوَل الشرفاء فى المغرب الأقصى ؛ السّعديّون وَالعَلوَيون :

تاريخ الشرفاء السعديين والعلويين الذين توالوا على حكم المغرب الأقصى وبعض المغرب الأوسط فى بداياته أشبه بالقصة أو الأسطورة فى بداياتها ، ولكنها أسطورة جميلة لا بأس بقبولها ، ومن الأسف أن مؤرخى المغرب فى نهايات القرون الوسطى ومطالع الأعصر الحديثة - فى جملتهم - مداحون متزلفون يصعب جداً أن نقبل كلامهم على علاته . وقد نشر فى السنوات الأخيرة نص « مناهل الصفا فى تاريخ الشرفا » للقشتالى ، فأعاننا كثيراً على تبيُّن خيط الحوادث ، واستطعنا أن نصحح به الكثير مما كان يحيرنا من كلام اليفرنى فى « نزهة الحادى » ولكن دليلنا الرئيسى هنا هو كتاب « الاستقصا فى معرفة دول المغرب الأقصى » لأحمد بن خالد بن حماد الناصرى السلاوى الذى يعتبر بحق من أكابر أعلام مؤرخى المغرب (٢٢ ذو الحجة ١٢٥٠ - جمادى الأول ١٣١٥هـ/ ٢٠ أبريل ١٨٣٥ - ١٣ أكتوبر ١٨٩٧م) . خاصة وهو يعتمد فيما كتب من تاريخ الشرفاء على مصدر إسبانى لا بأس به ، هو كتاب :

Manuel. P. Castellanos, Descripcion historia de Marruecos y breve resena de sus dinastras (Santiago 1878. Orihuela 1894, Tanger 1898)

ومانويل كاستيانو كان مندوباً إسبانياً يتردد فى السفارات على بلاد المغرب ، فأتقن العربية وعرف شئون المغرب الأقصى ، ووضع فيه هذا الكتاب الذى يقع فى ثلاثة مجلدات ، طُبع كل منها فى بلد من بلاد إسبانيا كما نرى فى بيان سنوات طبع أجزائه . والسلاوى هنا ربما كان من أوائل مؤرخينا الذين اعتمدوا فى مؤلفاتهم على مراجع غير عربية .

والذى يهمنا هنا هى بدايات السعديين والعلويين وأصلهم الشريف ، لأننا نؤرخ لقريش لا لهاتين الدولتين الكبيرتين فى جملته ، لأن تاريخهما حافل ، ومراجع ذلك التاريخ كثيرة جداً فى اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، لأن المغرب العربى جغرافياً - امتداد للغرب الأوروبى وواجهته الأطلسية ، ثم واجهته المتوسطية جعلت تاريخه دائماً متداخلاً فى تاريخ الغرب الأوروبى ، وذلك فى ذاته ميزة لطيفة من ميزات التاريخ المغربى عموماً .

والأسرتان السعدية والعلوية الفلالية أبناء عمومة فهما ترجعان إلى محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وأصلهما من أشراف الحجاز ، وكلاهما من بيت من الأشراف كان ينزل قرب ينبع .

ونسب الأسرتين طويل وواحد حتى نصل إلى محمد بن القاسم بن محمد الذى أنجب أولاداً كثيرين منهم اثنان ، أحمد بن محمد وقاسم بن محمد ، فأما أحمد فهو جد الشرفاء السعديين ، وأما قاسم بن محمد فهو جد الشرفاء العلويين . ويبدو أن البيت هاجر إلى المغرب فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) فى أعقاب هجرة العرب الهلالية واستقرار بطونهم فى المغرب كله بعد حروب ومغامرات وتصاريف طويلة ، ومن فروع بنى هلال التى استقرت فى جنوبى المغرب الأقصى بنو حسان وعرب المعقل من بنى هلال ، وهؤلاء الأخيرون استقروا فى حوض نهر درعة وأنشأوا لأنفسهم فيه وطناً ، وتوافد عليهم العرب من نواحى المغرب ومن جزيرة

العرب ، ومن المرجح أن هجرة الأشراف تمت من ينبع إلى بلاد عرب المعقل ، ربما فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى وظلوا فى موطن واحد لا نعرفه حتى افترقوا بعد وفاة محمد بن القاسم بن الحسن . فأما أحمد - وأولاده أجداد السعديين - فقد استقروا فى بلاد السوس عند تارودانت على وادى درعة ، وأما أبناء قاسم بن محمد فقد استقروا فى سجلماسة التى تُعرف أيضاً ببلاد تافلالت ، ولهذا يُلقَّبون بالفلاليين .

وكانت بلاد المغرب كله قد تعرضت للغزو البرتغالى والإسبانى ابتداء من القرن السادس عشر الميلادى بعد سقوط غرناطة كما سنرى . واحتل البرتغاليون مراكز على السواحل المغربية الأطلسية ، ومما احتلوه أغادير أو رأس غير ومن هناك هددوا مراكش ، وكان الوطاسيون قد عجزوا عن الدفاع عن جنوب المغرب ، فتجمعت قبائل جنوبى المغرب الأقصى تحت لواء واحد من أحفاد أحمد بن محمد بن القاسم ، وهو محمد بن محمد بن عبد الرحمن الذى نهض لمدافعة البرتغاليين واستطاع هو وحلفاؤه تحرير أرض المغرب من العدوان الأوروبى ، ولهذا سبقوا أبناء عمومتهم أحفاد قاسم بن محمد بن القاسم الذين استقروا فى سجلماسة حتى ساءت أحوال المغرب الأقصى خلال القرن السابع عشر الميلادى وتقاسم السلطان فيه رجال زاوية بو حسون السملالى ، وكانوا تنظيماً صوفياً سياسياً يسيطر على جنوبى المغرب الأقصى فى بلاد السوس وتافلات وما حولها ورجال زاوية الدلاء أو الديلة ، وكانوا أصحاب السلطان على منطقة وادى سبو ، فى حين أن بقايا الوطاسيين كانوا يحكمون منطقة مراكش .

وكان ظهور السعديين وتوليهم السلطان فى المغرب فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، وقد حكموا من سنة ١٥٥٣ إلى ١٦٥٤ ميلادية ثم أعقبهم العلويون الفلاليون الذين يحكمون المغرب إلى اليوم .

وقد تمتع آل البيت فى المغرب كله بجاه دينى واجتماعى عظيم ، وخاصة فى المغرب الأقصى منذ أيام الأدارسة . وقد أتمت دولة المرابطين الصنهاجية ثم دولة الموحدين المصمودية عمل الأدارسة فى القضاء على بقايا الزندقة والمذاهب المنحرفة عن السنة فى

المغرب الأقصى .. وفى أواخر أيام الموحدين دامت دولتهم من أوائل القرن السادس الهجرى إلى الربع الأخير من القرن السابع الهجرى (القرنان الثانى عشر والثالث عشر الميلاديان) كانت بلاد المغرب كلها قد تحولت إلى بلاد سنة وإيمان صحيح ، وقد انتهت دولة الموحدين سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م . عندما دخل أبو محمد عبد الحق بن أبى خالد محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد الحرينى مدينة مراكش .

وجدير بالذكر أن اللَّذيْن أسسا دولة الموحدين وهما محمد بن تومرت الهرغى وعبد المؤمن بن على الكومى ادعيا نسباً شريفاً حسنياً ، ومع أن هذه النسبة ظاهرة الاختلاق ، فإن نسب كليهما فى المصامدة عريق ومعروف ، إلا أن ذلك الانتساب فى ذاته يدل على ما كان النسب الهاشمى القرشى يتمتع به من جاه عظيم فى ذلك الجانب من عالم الإسلام .

وكان بنو مرين الذين خلفوا الموحدين بربراً زناتيين مستعربة وقد حكموا المغرب، وحاولوا إنقاذ ما بقى من الأندلس بالمساهمة فى الجهاد فى الأندلس وإرسال قوة من الغزاة وفى أيامهم ونتيجة للصراع الطويل بين صنهاجة وزناتة ثم بين صنهاجة ومصمودَ من ناحية ، وزناتة من ناحية أخرى ، ثم مع العرب الهلالية الذين انتشروا فى المغرب كله على نطاق واسع ، وأنشأوا لأنفسهم فيه أوطاناً واسعة فى كل ناحية من نواحى المغرب تقريباً ، نتيجة لذلك كله ضعفت الروح القبلية البربرية فى المغرب ضعفاً زائداً ، وعجز بنو مرين عن بسط سلطانهم على المغرب الأوسط ، وفى نواحى السوس استبدت قبيلة هنتانة المصمودية بالسلطان المحلى ، وسيطر عرب المعقل على وادى أم الربيع ، فى حين سيطر بنو حسان من عرب المعقل من بنى هلال على وادى درعة ، وتكاثروا فيه وأصبحوا قوة يُحسب لها كل حساب .

وفى ذلك العصر اشتد هجوم البرتغاليين والإسبان على سواحل المغرب بعد سقوط غرناطة وتصفية الوجود السياسى الإسلامى فى الأندلس سنة ٩٧٨هـ/ ١٤٩٢م .

فأما الإسبان فقد ثبَّتوا أقدامهم فى طنجة وسبتة ومليلة والقصر الصغير أو قصر ماسة فى شمال المغرب الأقصى ، أما البرتغاليون فقد تزايد خطرهم على سواحل

المغرب الأطلسية ، وفى سنة ١٤٧١م استولوا على سبتة وبعد ذلك وفى نفس السنة استولوا على أصيلا والعرائش وأغاروا على القصر الكبير ، وقبل ذلك بسنتين استولوا على آنفا وهى الدار البيضاء . وفى سنة ١٥١٣م استولوا على آزمور ، وبعد ذلك بسنة استولوا على مازاغان ، وفى سنة ١٥١٩م استولوا على ثغر العجوز ، وكانوا قد استولوا على ثغر أغادير سنة ١٥٠٥م ، وعلى ثغر ماسة جنوبى المغرب الأقصى سنة ١٤٩٨م . وفى كل بلد من هذه البلاد أنشأوا قلعة تسمى الفرونتيرة fronteiras وضعوا فيها حامية وأنشأوا سوقاً ، ومن ثغر أغادير أخذوا يتوغلون فى الداخل حتى وصلت طلائعهم حوز مدينة مراكش .

وقد عجز المرينيون عن مدافعة أولئك الغزاة النصارى ، وكان العصب القبلى قد ضعف فى المغرب نتيجة للصراعات التى ذكرناها ، واحتاج أهل المغرب إلى روح معنوى جديد يرفع من قواهم ، وإلى لواء يجتمعون حوله ليدفعوا عن بلادهم هذا الخطر المتزايد .

فأما القوة المعنوية فقد وجدوها فى الطرق الصوفية وخاصة الشاذلية والقادرية وما تفرع منها مثل التيجانية والجزولية ، قد لقيت قبولاً عظيماً من الناس ، فتجمع أهل المغربين الأوسط والأقصى تحت لواء مشيخات الطرق الصوفية التى حلت محل العصبيات القبلية ، وفى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى انتشرت الزوايا الصوفية فى كل بلاد المغربين الأوسط والأقصى ، وقام على رأس كل زاوية مُقدَّم يتبعه عدد من الإخوان ، وكانوا فى نفس الوقت طلاباً وجنداً . وشعر سلاطين بنى مرين فى أواخر أيامهم بالخوف من الصوفية فدبروا مقتل الشيخ الجزولى ، فقتل ودُفِن فى شيشاوة بالمغرب الأقصى ، فأثار هذا الحادث شعور الصوفية بالعداء نحو المرينيين ومن ناحية أخرى تزايد الخطر البرتغالى ، وتبين أن بنى مرين من الوطاسيين عاجزون عن حماية دار الإسلام .

فى ذلك الحين كانت أسرة الأشراف الحسنيين التى انحدرت عن أحمد بن قاسم التى ذكرناها قد استقرت فى بلاد السوس وبدأت تجمع الأنصار ، وهذه هى أسرة الشرفاء السعديين الذين ينسبهم القشتالى مؤرخ البيت السعدى إلى رجل من شرفاء

الحجاز يسمى محمد بن سعد ، فى حين يذهب خصومهم إلى القول بأنهم يسمون السعديين نسبة إلى بنى سعد بن بكر ، لأنهم فيما قيل من أحفاد حليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ ، ولكننا نرجح أنهم شرفاء من ناحية ينبع كما قلنا ، وقد استقروا فى السوس وقضوا زماناً طويلاً قبل أن يظهر أمرهم .. وقد ذكرنا نسبهم فيما سلف ولا معنى لإنكار أصلهم الهاشمى الحسنى .

وكان عجز المرينيين قد تجلى للناس وسيطر عليهم بنو وطاس وخاصة يحيى بن أبى زكريا الوطاسى . وفى مايو ١٤٦٥ قُتل آخر سلاطين المرينيين وتولى الأمر أول الوطاسيين وهو محمد الشيخ ، ولكن سلطانه لم يتعد موقع فاس .

ولكن الوطاسيين أثبتوا أنهم ليسوا خيراً من المرينيين ، فقد تقدم البرتغاليون بجيش من ٣٠,٠٠٠ مقاتل جاؤوا على ظهر ٤٧٧ سفينة واحتلوا أصيلا فى مايو ١٤٧١م ، وعقد معهم محمد الشيخ صلحاً ، وفى ٢٩ أغسطس ١٤٧١ ، احتل البرتغاليون طنجة وأنشأوا فى أصيلا وطنجة القلاع المسماة فروتنيرات ، وأنشأوا فى دواخل البلاد وكالات Feitories يقيم فى كل منها وكيل feitar على رأس حامية ، وكانت الوكالة تغير على الأراضى المجاورة وتأسر الناس وتنهب أموالهم وترغمهم على بيع القمح والجلود والأصواف بأبخس الأسعار . وكانت الغارات البرتغالية تتوغل فى الداخل إلى عمق ٣٠ كيلو متراً ، ولم يلبث إقليم دكالة كله أن أصبح خاضعاً لهم ، وضوى إليهم بعض ضعاف الزراع والرعاة فوضعوهم تحت حمايتهم واستخدموهم وسموهم العرب المسالمة moros de la paz وكان البرتغاليون يستخدمون أسرى المسلمين فى بناء القلاع وحمل البضائع .

هذه المهانة الكبرى للإسلام وأهله أثارت عواطف الناس وزادتهم يأساً من المرينيين والوطاسيين وجعلتهم يتجهون بآمالهم نحو الصوفية وشيوخهم .

وفى السنة التى قُتِل فيها آخر المرينيين وهى ١٤٦٥م . حدث شىء يشبه الإرهاص باتجاه الحكم فى المغرب الأقصى إلى الشرفاء . ذلك أن الناس اكتشفوا فى وليلى مدفن المولى إدريس وهو إدريس الأول ، مؤسس بيت الأدارسة فأبقوه مكانه وأقاموا عليه

ضريحاً ، واستيقظت فى البلاد كلها دعوى الشرفاء وتفاءلوا بهم خيراً فى الظروف العصيبة التى كانت البلاد تمر بها ، ولكن أمير بنى وطاس تمكن من اقتحام فاس على الإمام الإدريسى .

فى ذلك الحين كان محمد بن سعد الملقب بالقائم بأمر الله أو بالمهدى قد كسب ثقة واحد من أكبر مشايخ الصوفية فى السوس وهو سيدى عبد الله المبارك ، فنادى به قائداً لحركة الجهاد فى منطقة السوس ، وتجمع الناس حوله فأنشأ قوة عسكرية كبيرة وسار إلى الشمال فترك إقليم حاحة وتجمع حوله أهله من العرب والبربر ، فوضع لهم نظاماً قبل أن يُتوفى سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م . فى بلدة أفغول . كانت دولة الشرفاء السعديين قد تأسست ، وخلفه ابناه أحمد الأعرج ومحمد الملقب أيضاً بالمهدى ، واتخذا مركز أعمالها فى تارودانت عاصمة السوس وأعلنا الجهاد على البرتغاليين الذين كانوا يسيطرون على ميناء آنفا وهى الدار البيضاء وما يجاورها جنوباً من بلاد الساحل ، وتزايدت جموعهما ، فخالفهما صاحب مراكش ، ولم يلبث هذا الأمير أن قُتِل فقام رجال السعديين بإعلان أحمد الأعرج سلطاناً على مراكش وإقليمها .

وهكذا قامت دولة جديدة قرشية هاشمية هى دولة الشرفاء السعديين فى بلد له تاريخ قديم فى الولاء لآل البيت منذ أيام الأدارسة ، وقد قامت الدولة الجديدة على العصب الدينى وعلى حاجة الناس الماسة إلى زعيم سياسى دينى يستطيع قيادتهم فى تحرير بلادهم من الاحتلال البرتغالى الصليبى . وجدير بالذكر هنا أن البرتغاليين والإسبان كانوا قد تشجعوا على غزو بلاد المغرب بتأييد وتحريض من البابا ، الذى أباح لهم حرب أهل المغرب والاستيلاء على بلادهم وتحويلها إلى بلاد نصرانية ليتموا بذلك ما بدأوه فى الأندلس .

وبدأ السعديون فى مقاومة البرتغاليين وقائدهم نونيو ماسكاريناس Nunho Mascarenhas وقد حاول بقايا الوطاسيين منافسة السعديين ولكن سلطانهم الأخير محمد الملقب بالبرتقالى ، قُتِل سنة ١٥٢٥م فانتهت بذلك الدولة الوطاسية وخلا الميدان للسعديين .

وقد تعرضت دولة السعديين أول قيامها لمتاعب جمة ، فخاضت صراعاً طويلاً مع

بقايا الوطاسيين ، ثم تعرضت لصراع داخلى بين الأخوين أحمد الأعرج ومحمد المهدى، وقد انتصر أحمد الأعرج وتوفى سنة ١٥٥٧م وخلفه ابنه مولاى عبد الله الغالب بالله (١٥٥٧ - ١٥٧٤م) الذى حكم المغرب الأقصى كله رغم مطامع البرتغاليين من ناحية والأتراك العثمانيين أصحاب تلمسان والمغرب الأوسط من ناحية أخرى ، وقد جعل عبد الله الغالب مراكش عاصمته ، وبذلك عادت قاعدة القطر المغربى إلى مراكش بعد غيبة ثلاثة قرون .

ولكن أخاه عبد الملك الذى خلفه هو الذى كسب لأسرة الشرفاء السعديين أكبر نصر خلد ذكرها فى صفحات التاريخ ، هو نصر وادى المخازن الذى كسبه أبو مروان عبد الملك بن محمد المهدى بن عبد الله بن سعد ، وكان أميراً مغامراً ، هاجر إلى الترك طالباً نصرتهم على أخيه عبد الله ، فى حين هاجر أخوه الثانى محمد المتوكل إلى الإسبان ثم البرتغاليين طالباً عونهم للحصول على العرش ، وهكذا نرى كيف أن المُلْك والوصول إليه كانا دائماً الداء الأكبر الذى آذى دول المسلمين .

وقد تمكن محمد المتوكل من إقناع الملك سباستيان ملك البرتغال من أسرة آفيس بإرسال جيش معه لانتزاع العرش من يد أخيه أبى مروان عبد الملك ، فأعد هذا الملك جيشاً نصرانياً فيه سبعة آلاف مقاتل برتغالى وألفان من الإسبان وعدد من فرسان الإنجليز والإيطاليين ، ونزل ذلك الجيش فى ميناء القصر الكبير ، وتقدم للقائه عبد الملك السعدى مع قوات من الأتراك وجيش قوى من العبيد وهم القوة العسكرية التى أنشأها السلطان السعدى الغالب بالله واعتمد عليها ، لأن قوات المرابطين والصوفية تخلت عنه بسبب تحالفه المستمر مع الإسبان .

وفى ١٥٧٨م دارت معركة حاسمة من معارك تاريخ الإسلام فى واد قريب من نهر لوكوس يسمى وادى المخازن ، اشترك فيها سان سباستيان ملك البرتغال ومحمد المهدى المطالب بعرش المغرب ، والملك أبو مروان عبد الملك السعدى قائد جيوش المسلمين ، فأما ملك البرتغال فقد قُتِل ، وأما محمد المهدى فقد غرق ، وأما عبد الملك الذى كسب نصر معركة وادى المخازن فقد كان على فراش الموت ولم يمهله القدر حتى يسمع أنباء النصر الذى كسبه . وكانت تلك المعركة التى تسمى عند المسلمين

بمعركة وادى المخازن ، وعند البرتغاليين باسم معركة الملوك الثلاثة ، نهاية لكل مطامع البرتغاليين فى أرض المغرب والمسلمين .

وبذلك كانت نجاة ذلك القطر الإسلامى العظيم من شر الاحتلال النصرانى فى الربع الأخير من القرن السادس عشر الميلادى على يد سلطان قرشى هاشمى ، فى حين أن نجاة المغرب الأوسط (وهو جمهورية الجزائر الحالية) من شر الاحتلال الإسبانى فى نفس العصر ، قد تمت على أيدى الأتراك العثمانيين . وجنى ثمار النصر أحمد بن عبد الملك الذى لُقِّب بالمنصور الذهبى (١٥٧٨ - ١٦٠٣م) . وهو أبعد ملوك هذه الأسرة صيتاً وأشهرهم . وقد حصل من هذه المعركة على غنائم كبيرة ووقع فى يده أسرى كثيرون فداهم أهلهم البرتغاليون بذهب كثير ، ثم حاول أحمد المنصور الذهبى غزو مملكة صنغَى المدارية الإسلامية وكسب من ذلك ذهباً كثيراً أيضاً - ومن هنا فقد سُمِّى بالذهبى - ولكن المحاولة نفسها كانت سيئة النتائج للمغرب ولإفريقية المدارية الإسلامية .

وقد ارتفع صيت السعديين فى أوروبا عقب هذا النصر ولم تَعُدْ دول الغرب تفكر فى غزو المغرب ، وأرسلت السفراء إلى مراكش والقناصل لموانىء الغرب ، واشتهر أحمد المنصور بالغِنَى وكثرة الذهب فلُقِّب كذلك بالذهبى .

وقد بلغت دولة السعديين أَوْجَها فى عصر أحمد المنصور الذهبى (١٥٧٨ - ١٦٠٣م) الذى يعتبر من أعاظم ملوك المغرب ، وكان سلطاناً طموحاً فيه لمحات من العبقرية تذكرنا بالعظماء من ملوك قريش أمثال : معاوية بن أبى سفيان ، وعبد الملك ابن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، وعبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر ، وأبى جعفر المنصور ، وهارون الرشيد ، وأبى عبد الله المأمون ، والمعز لدين الله الفاطمى ، فكان واسع الطموح متجدد النشاط ميالاً إلى الفخامة والولع بمظاهر العظمة الملوكية ، وقد كان يبهر سفراء الغرب الأوروبى بما يبدى من مظاهر بذخه وجلال عرشه واستقبالاته ، ولكنه يخيب رجاءنا فى نفس الوقت بسياسة العنف التى اتبعها مع أهل بلده ، وسوء رأيه فى بعضهم واتجاهه إلى استغلاب أهل الوديان ومن يستطيع التغلب عليهم من أهل ما سماه بلد المخزن ، أى البلاد التابعة

للحكومة واعتباره بقية بلاد المغرب من الجبال العالية وأهلها أهل خروج عن الطاعة، وتسميته بلادهم ببلاد السيبة وإعلانه الحرب عليها ، ويحيرنا فى أمره كذلك هذا الأسلوب العنيف القصير النظر الذى اتبعه فى غزو بلاد السودان وهى مملكة صُنْغَى .

عاش أحمد المنصور الذهبى فى القرن السادس عشر ، ولكنه حكم بلاده بأسوأ مما حكمها به أعراب زناتة وبنى يفرن ، فقد اكترى جيشاً رهيباً من المرتزقة واشترى ألوف العبيد وصنع منهم قوة إرهاب لا قوة حكم ، وتصرف فى أموال بلاده - وهى أموال الأمة - تصرُّف السفيه وخرب مملكة إسلامية لا ذنب لها وهى مملكة صُنْغَى لكى يحصل على تبر الذهب ، وحصل عليه ثم أنفقه فى شر الوجود ، وأرهب رعيته وسامها الخسف ، ورعيته هم شعب المغرب الأقصى ، وهم من أعز خلق الله حمية وعزة وكرامة ، وجبى الأموال فى غير رحمة حتى أصبحت تسمى بالنوائب والضريبة أصبحت تسمى نائبة ، وهذه كلها حقائق ينبغى أن أنبه إليها وأنا أعلم أن بعض المثقفين من أهل المغرب الأقصى لا يحبون هذا الكلام ، لأنهم لا زالوا يجهلون أن الحقائق وحدها هى التى تنفع ، ومع ذلك فأنا هنا أؤرخ لقريش لا للمغرب ، فأنا أكشف حقائق الحكم فى عصر ملك قرشى أتيحت له فرصة من ذهب فأحالها إلى تراب ، وبهر الدنيا بمنظره وذهبه ، وأتعس أمته بظلمه وغروره وسوء فهمه لطبيعة الإسلام ومذاهبه فى الحياة وأمور الناس .

على أى حال يمكن القول إن ظروفه كانت عسيرة ، ولم يحاول من جانبه أن يفهم طبيعة العالم الغربى الذى واجهه وحالف بعض بلاده وحارب بلاده الأخرى . ولو تنبه أحمد المنصور الذهبى إلى ركائز قوة الغرب من علوم وأسلحة وبحريات وسياسات دولية ووضع نظام بلاده على هذا الأساس ، فربما كان طليعة ملوك الإسلام فى مواجهة الغرب الأوروبى بأساليبه ، وفى هذه الحالة كان المغرب يكون فى طليعة بلاد الإسلام فى مواجهة الغرب والأخذ بأسباب القوة الحديثة ، فقد حكم المنصور فى عنفوان عصر النهضة الأوروبية ، وإسبانيا فى أيامه لم يكن لها من القوة ما تواجه به المغرب ، وفرنسا كانت غارقة فى الحروب الدينية . وانجلترا كانت مستعدة

لمحالفته وتبادل المنافع معه للاستعانة به على عدوتها فرنسا . أى : أنه لو تدبر أمره بعقل وحكمة لكان من أكابر رجالات الدنيا فى أيامه .

ولكن هكذا كان ، وضاعت الفرصة . وما أكثر الفرص التى ضيَّعها العرب والمسلمون فى تاريخهم . ولم يكد أحمد المنصور الذهبى يتوفى سنة ١٦٠٣م . حتى قامت الحرب بين أبنائه الثلاثة : مولاى زيدان الذى أعلن نفسه سلطاناً فى فاس ، وأبى فارس الذى أعلن نفسه فى مراكش ، والشيخ المأمون وهو فى الأصل كان ولى العهد ولكنه أحرج صدر أبيه بنزواته وثوراته فسجنه . وقد استمرت الحرب بين الإخوة سبع سنوات ، حتى خلص الأمر لمولاى زيدان فى مراكش وحدها وحكم من ١٦١٣ إلى ١٦٢٨م حكماً مضطرباً قلقاً حافلاً بالثورات والمآسى .

ولقد استولى الإسبان على العرائش سنة ١٦١٠م ، وأقاموا قلعة عند مصب نهر سبو لكى يمنعوا سفن المغرب من الخروج إلى عرض البحر للتعرض لسفن أهل الغرب وقد سمى الإسبان هذه القلعة باسم سان ميجيل دى أولترامار San Miguel de Ultramar وسماها أهل المغرب بالمعمورة ، وهى اليوم المهدية . وعلى أثر ذلك هبت الجماعات الصوفية فى كل مكان فى المغرب منادية بطرد المعتدين النصارى ، وبان لها كلها عجز البيت السعدى عن حماية البلاد ، وانتقلت القيادة إلى الجماعات الصوفية.

ففى إقليم تافلالت وعاصمته سجلماسة فى جنوب البلاد ظهر شيخ صوفى يسمى بامحلى تبعه صوفيون محاربون كثيرون ، واتخذ مركزه فى وادى سَوْرَة حوالى ١٦٩٣ وسار نحو سجلماسة واستولى عليها وعجز مولاى السلطان زيدان عن التصدى له ، وتقدم فعبر الجبال بجموعه ودخل مراكش ووجد مولاى زيدان نفسه عاجزاً عن الثبات أمامه ، فاستعان عليه بزعيم صوفى آخر يسمى يحيى بن عبد الله الحاص وتمكن هذا الأخير من اقتحام مراكش وقتل المحلى ، وظل الحاص فى مراكش حتى قام عليه سنة ١٦٢٧ شيخ صوفى أكبر وأقوى وأشهر وهو أبو الحسن السملالى المعروف بأبى حسون وأصله من ماسة . وقد أنشأ هذا الرجل فى بلاد السوس إمارة صوفية ومدَّ سلطانه على جنوب الأطلسى ، وظل سيداً لنواحى جنوبى المغرب حتى قيام دولة الشرفاء العلويين .

أما شمال المغرب فقد سادت الفوضى ، إذ تنازعت السلطان فيه ثلاث قوى : الأولى : هى بقايا قوة السعديين فى فاس وسلطانهم عبد الملك بن زيدان السعدى ، والثانية : جماعة مهاجرى الأندلس الذين نزلوا مصب نهر أبى الرقراق وأنشأوا فى حوضه دويلة قاعدتها رباط الفتح ، وهؤلاء المهاجرون كانوا من بين مسلمى الأندلس الذين طردهم ملك إسبانيا فيليب الثالث بين سنتى ١٦٠٩م و ١٦١٤م ، وكان أصل هذه الجماعة التى نزلت عند رباط الفتح ببلدة تسمى فى النصوص الإسبانية بأندلس سلا وإلى جوارهم كانت جماعة من غزاة الأسبان أصلهم من بلدة تسمى اورانشو Hornacho فى إقليم الجوف الأندلسى المعروف باسم استرامادورا Estramadura أى الناحية بالغة الجفاف ، ولذلك عُرِفوا باسم الأرناشيروس ويسمون فى النصوص باسم نصارى الجديك ، وقد رحب بهم مولاى زيدان وابنه عبد الملك من بعده ، حاسبين أنهما يجدان فيهم جنداً يستعينان بهم فى حروبهما ، ولكن أولئك الموريسكيين لم يكن لهم هَمٌّ إلا محاربة نصارى الجديك .

وعندما ألح عليهم مولاى زيدان فى ضرورة معاونته عسكرياً تمردوا عليه ووقعت الحرب بينه وبينهم ، وظهر من بين الصوفية زعيم قوى هو أبو عبد الله العياش ، تجمع إليه المجاهدون وساد فاس وسيطر عليها وتجرد هذا الرجل لحرب النصارى ، وتمكن من الاستيلاء على بعض قواعد الإسبان حتى قُتِل فى حربه للموريسكيين النازلين بسلا المعروفين بأندلس سلا . وكان هؤلاء قد استجاشوا بنفر آخر من الصوفية يسمون أهل زاوية الدلاء نسبة إلى موقع زاويتهم الأساسية « دلاء » فى إقليم تادلا شرقى فاس . وإقليم تادلا جبلى سكانه من البربر ، ولهذا يسمى أهل زاوية الدلاء ببربر الدلاء .

وبعد موت العياشى فى المحرم سنة ١٠٥١هـ ، أصبح السلطان فى فاس وتادلا وحوض نهر سبو لأهل زاوية الدلاء ، ومؤسس زاويتهم هو الشيخ أبو بكر بن محمد المعروف بحيى بن سعيد بن أحمد بن عمر بن يسرى المجاض ، ثم خلفه ابنه وكان من كبار أهل الطريق ، وقد شهد له بالكرامات أعلام الصوفية فى عصره مثل : الحافظ أبى العباس المقرى ، والحافظ أبى العباس بن يوسف الفاسى ، والإمام أبى محمد بن

عباس ، والفقيه العلامة أبى عبد الله محمد مياره . وقد عَظُم أمر أهل زاوية الدلاء وعجز عن محاربتهم السلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدى حتى زال سلطانه تقريباً أمامهم .

ظهُور الشُـرفاء العَلَويّين :

وبينما كان أمر السعديين فى هبوط وزوال بدأ صعود نجم جماعة جديدة من الأشراف العلويين الحسنيين ، هم الأشراف العلويون وأصلهم من أشراف الحجاز ومن مدينة ينبع كذلك . وقد ذكرنا أنهم أبناء عمومة السعديين ، ومن الممكن أن يكون أجدادهم قد وفدوا إلى المغرب الأقصى فى نفس الوقت الذى وفد فيه السعديون فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، وربما فى القرن الذى تلاه ، ونزلوا ناحية تافلالت خلال القرن الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى ، وظلوا يعيشون وسط قبائل العرب والمغاربة هناك غير ناظرين إلى مُلْك أو رياسة ، حتى دفعتهم ظروف تدهور السعديين إلى ذلك دفعاً . وكانوا طوال تاريخهم فى نواحى تافلالت يتمتعون بمكانة مرموقة ، فكانوا شرفاء يحترمهم الناس لنسبهم الشريف ، وكانوا أهل دين وعلم وعقل وحكمة ، فلا عجب أن كانوا رؤساء أهل سجلماسة وتافلالت علماً ومكانة وشرفاً .

وأول مَنْ يُذكر من كبار رؤسائهم فى النصوص المولى محمد بن الشريف السجلماسى . وقد قضوا زماناً طويلاً فى مهدهم الجديد فى تافلالت حتى كسبوا صيتاً بعيداً واشتهروا بالدين والشهامة والعلم وأصبحت لهم رياسة على إقليم تافلالت وتجمعت حولهم قوة عسكرية ، ودارت مكاتبات بين شيخهم محمد بن الشريف السجلماسى والسلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدى ، وتمت بينه وبين شيوخ العلويين السجلماسيين مهادنة ، فالسعديون فى مَراكش وما حولها إلى الساحل والفلاليون فى تافلالت ونواحيها ، أما حوض نهر سبو أى منطقة فاس وما يليها غرباً وشمالاً ، فكانت أولاً تحت سلطان أهل زاوية أبى عبد الله العياشى ثم صارت إلى أهل زاوية الدلاء ، أما السواحل فكان معظمها بيد الإسبان فى حين أن مناطق الجبال كلها تقريباً كانت بلاد سيبة ، أى : بلاد تنفرد بها قبائلها دون طاعة لسلطان .

ومعنى ذلك أن بلاد المغرب فقدت وحدتها السياسية واحتاج الأمر إلى من يجمع شملها ، وقد ضعفت دولة السعديين ضعفاً زائداً أيام السلطان أبى العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان . وقد قتله أخواله من عرب الشبانات من عرب المعقل ، وعلى أثر ذلك استولى على السلطان فى مراكش الرئيس عبد الكريم بن القائد أبى بكر الشبانى ثم الحريزى رئيس عرب الشبانات المعروف بكَرّوم الحاج لفترة قصيرة ، ثم عاد السلطان فى مراكش بعدها إلى السعديين .

وفى أثناء ذلك توفى المولى محمد بن الشريف العلوى الفلالى وخلفه ابنه محمد بن محمد ، وكان أهل زاوية الدلاء يبسطون سلطانهم على جزء من سجلماسة ، فجمع مولاى محمد بن محمد الشريف العلوى رجاله وأزاح رجال زاوية الدلاء عن سجلماسة سنة ١٦٣٨م ، ولم يستطع الامتداد شمالاً أو غرباً فاتجه برجاله شمالاً بشرق واستولى على وجدة وأخذ يغاور ناحية تلمسان ، ومن هناك حاول الاستيلاء على فاس ، وكان أهلها قد ضاقوا بأهل زاوية الدلاء ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على الدلائيين سنة ١٦٤٩م واضطروا إلى العودة إلى تافلالت .

ولكن ابنه مولاى الرشيد كان أحسن حظاً ، فقد تجرد لحزب أهل زاوية الدلاء وتمكن فى يونيو ١٦٦٦م من دخول فاس حيث أعلن نفسه سلطاناً ، وبهذا قامت الدولة العلوية الشريفة معتمدة على قوة عسكرية منظمة ، وقد انضم الشرفاء الأدارسة إليه ، وتمكن من تخليص منطقة فاس من أهل زاوية الدلاء . وفى سنة ١٦٦٨م تمكن من الاستيلاء على زاويتهم الرئيسية وتدميرها ، ثم دخل مراكش فى السنة التالية ١٦٦٩م ، وقضى على قوة عرب الشبانات وأنهى دولة السعديين وتغلب كذلك على أهل زاوية السوس أتباع أبى الحسن السملالى ، وبذلك يكون السلطان الرشيد أول العلويين الفلاليين قد تمكن من إعادة توحيد الوطن المغربى فيما عدا منطقة الريف وما يليها شمالاً .

وفى هذه الفترة وأثناء صراع طويل بين الفرنسيين والإنجليز تمكن الإنجليز من الاستيلاء على صخرة جبل طارق سنة ١٦٦١م ، بعد زواج ملكهم شارل الثانى من الأميرة كاتارينا وريثة عرش البرتغال ، فصارت له صخرة جبل طارق وراثة ، وبهذا

يبدأ احتلال الإنجليز لها . وقد طال الصراع بين الرشيد والشيخ أعراس رئيس قبائل الريف وشمال المغرب الأقصى ، وتحالف الشيخ أعراس مع الفرنسيين ليستعين بهم على الشريف الرشيد وأعطاهم مركزاً تجارياً فى المزمة وهى الحسيمة ، وتسمى عند الفرنسيين باسم اليوزيم ، وتمكن السلطان رشيد من بسط سلطانه على الشمال وتوحيد المغرب الأقصى . وكان مقام السلطان رشيد مراكش وفيها مات على أثر سقوطه من على جواده سنة ١٦٧٢م ، وكانت سنه لا تجاوز الثانية والأربعين ولكنه تمكن من إقامة دولة الشرفاء العلويين الفلاليين الذين لا يزالون يحكمون المغرب إلى اليوم .

وقد قام أخوه وخليفته مولاى إسماعيل بتثبيت دعائم هذا الملك . وحكم مولاى إسماعيل طويلاً من سنة ١٦٧٢م إلى ١٧٢٧م ، واشتهر أمره سلطاناً قوياً نشيطاً جليل الهيئة ، وقد طار صيت مولاى الشريف العلوى فى أوروبا وفرنسا خاصة حتى قيل إنه كان على وشك أن يتزوج إحدى بنات ملك فرنسا . وقد أصبح السلطان إسماعيل أسطورة عند الغربيين ، فقد كان رجلاً ضخماً طوالاً عريض المنكبين تزيده ملابسه ضخامة هيئة ومنظر ، وكان سريعاً إلى الغضب والحركة ، ويقال إنه كان يقتنى ٥٠٠ امرأة من بينهن إنجليزية وفرنسية ، أنجب منهن فيما يقال ٧٠٠ ولد . لكنه على أى حال حمى حوزة بلاده وأنشأ قوة عسكرية عظيمة ، واستعاد من الإسبان كل المواقع التى كانوا يحتلونها على الساحل الغربى المغربى وخلَّص المغرب من الفوضى وقضى على سلطان أصحاب الزوايا .

وقد اعتمد مولاى إسماعيل على قوة مدربة من العبيد السود ، كان يستجلبهم من السودان الغربى ويحسن تدريبهم فى مركز كبير فى مشرع الرمل بين سلا ومكناس . وكان الواحد منهم إذا أتم تدريبه أقسم على البخارى بالإخلاص ولهذا فقد سُمُّوا البخاريين أو البواخر . وكان له منهم ١٥٠,٠٠٠ رجل، منهم ٧٥,٠٠٠ يقيمون بصفة دائمة فى مشروع الرمل و٢٥ ألفاً فى مكناس ، وكانت المقام المفضل لمولاى إسماعيل ، ويعتبر مولاى الشريف إسماعيل من أجلاء ملوك المسلمين ، وهو يقف على مستوى واحد مع أعاظم حكام المسلمين خلال العصر الأخير من عصور القوة

الإسلامية أى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، من أمثال : السلطان أكبر، وإسماعيل الصفوى ، ومحمد الفاتح ، وسليم الأول ، وسليمان القانونى ، وقد واجه كل المصاعب التى أحاطت بالمملكة المغربية ببسالة وثبات وتصميم وتمكن من إخراج الإنجليز من طنجة واستعادة الشاطىء الأطلسى للمغرب ، وواجه الأتراك العثمانيين سادة الجزائر فى عصره وحمى حوزته ، وإن صعبت عليه استعادة سبتة ومليلة والحسيمة من الإسبان (على ساحل البحر المتوسط) ومازغان من البرتغاليين على شاطىء الأطلسى ، هذا إلى جانب توحيده الكامل لبلاده والقضاء على استقلال بلاد السيبة ، ووضع حداً لإفساد أهل الحرابة الذين كانوا يقطعون الطرق ويقلقون الأمن ويروعون الناس ويؤذونهم ، وقد قضى عمره متنقلاً بجيوشه من غرب بلاده إلى شرقها ، ومن شمالها إلى جنوبها . ونثر فيها الحصون والقلاع وشَكَّها بالمقاتلة ، فأمنت السبل واطمأن الناس ونعمت البلاد بالرخاء .

ولكن مولاى إسماعيل كان بالغ الغاية فى الاستبداد ، فهو لا يستشير ولا يُشار عليه ، والشىء يخطر بباله فينفذه فى الحال ، ويغضب فيجهل على الناس وقد يقطع الرقاب ، وهذه صفة نجدها - على درجات متفاوتة من الظهور - عند الكثيرين من أكابر ملوك القرشيين والمسلمين من أمثال : أبى جعفر المنصور ، وعبد الرحمن الناصر الأندلسى ، وظهير الدين بابر ، وجلال الدين أكبر ، والسلطان سليم الأول العثمانى ، والظاهر ركن الدين بيبرس ، ويبدو أن كثرة المشاغل والأخطار وتوالى الأعداء تنزع من قلوبهم الرحمة والصبر وطول البال والإحساس بآلام الناس ، وأخبار مولاى إسماعيل فى ذلك كثيرة . وقد لاحظ عليه هذه الظاهرة الكثيرون من سفراء الفرنسيين الذين زاروه ، ولكنه على أى حال حمى حوزة بلاده ووحَّد دولته ورفع هيبة السلاطين فى المغرب بعد طول ضعف وتدهور واستخفاف ، والدول فى تلك العصور ربما كانت تحتاج إلى مثل هذه الصفات .

وهذا الملك القرشى الهاشمى الهمام كان معاصراً للويس الرابع عشر ، فقد حكم من سنة ١٦٧٢ إلى ١٧٢٧م . وحكم لويس الرابع عشر من سنة ١٦٣٨ إلى ١٧١٥م ، وتشابه الرجلان فى الاستبداد والاعتزاز بالملك واتساع النشاط ، ولكن مولاى

إسماعيل يفْضُل لويس الرابع عشر فى كثير ، فإن كل حروب مولاى إسماعيل كانت دفاعاً عن بلاده وحوزتها ووحدتها ، بينما كانت كل حروب لويس الرابع عشر حروبَ غرور وعدوان وخيلاء ، وقد خسرت فرنسا والفرنسيون من جراء ذلك خسائر فادحة ، ومهما نقول فى اعتزاز مولاى إسماعيل بنفسه ومُلْكه وسلطانه فقد سَلِم من ذلك الغرور المقيت الذى ينفر الإنسان من لويس الرابع عشر، وبينما كان لويس الرابع عشر جامداً كالصخرة ، كانت فى مولاى إسماعيل رقة تبدو عليه إذا هادنته الأيام وصَفَتْ نفسه ، وقد أنشأ الكثير من المساجد والمدارس ، ومرجع ذلك كله إلى الإسلام والهاشمية .

وكما بدأ لويس الرابع عشر فى إنشاء قصور فرساى كان مولاى إسماعيل صاحب الفضل فى تعمير مكناس وإنشاء عمائرها البديعة وأسوارها السامقة وبواباتها التى تعتبر من مفاخر العمارة الإسلامية ، ولا زالت مكناس إلى يومنا هذا بموقعها ورياضها وحدائق زيتونها (مكناس الزيتون) تبهر أعيننا وتُذكِّرنا بمولاى إسماعيل . وهذه هى ثانى مدينة عظيمة يعمرها القرشيون الهاشميون فى المغرب الأقصى : الأولى : فاس الأدارسة ، والثانية : مكناس العلويين ، وكلتاهما من مفاخر حضارة الإسلام .

وإلى هذا الأساس المكين الذى وضعه مولاى إسماعيل لدولة الشرفاء العلويين ، يرجع الفضل فى بقاء هذه الدولة القرشية الهاشمية إلى يومنا هذا واحدة من أعاظم دول الإسلام ، وثانية الدولة الهاشمية التى لا زالت تمثل قريشاً فى عالمنا الراهن . ولقد طال عمر هذه الدولة - ويطول إن شاء الله - وتعاقبت عليها صروف الدهر وتقلبت عليها السنون بين سعود ونحوس ، ويكفيها أنها صمدت لمحنة الاحتلال الفرنسى وأخرجت منه القطر المغربى سالماً على يد ملك قرشى هاشمى وبطل من أبطال التحرير العربى الإسلامى هو مولاى محمد بن يوسف المعروف فى حوليات الإسلام المعاصر بمحمد الخامس . وفى سبيل حرية بلاده نُفِى إلى مدغشقر ثم عاد منتصراً لكى يجمع شتات شعبه ويستكمل استقلال بلاده ويفتح فى تاريخه عصراً جديداً زاهراً من التقدم والازدهار ، ويخلفه فى القيادة ابنه الحسن بن محمد بن يوسف وهو الحسن

الثانى ، وهو رمز من رموز وحدة شعبه ، وعَلَم من أعلام التقدم والنهوض فى عالم العرب .

وعلى ذكر هؤلاء الملوك الثلاثة القرشيين الهاشميين : الحسين بن طلال ملك الأردن ، ومحمد بن يوسف ، وابنه الحسن الثانى بن محمد مَلِكَىْ المغرب نقف بهذا البحث عن قريش فى التاريخ ، بدأناها وقريش قَبِيلٌ صغير منحدر من فلسطين فى ثنايا قبيلتها الأم كنانة من قبيل إلياس بن مضر قبل البعثة المحمدية ربما بسبعة قرون أو ثمانية ، فقد دخلت مُضَر كلها الجزيرة فيمن دخلها مع أولاد إسماعيل عليه السلام فى موجة العرب المستعربة ، وتتبعنا تاريخها منذ ظهورها على مسرح الأحداث من أيام فهر بن مالك بن النضر بن كنانة إلى عصرنا هذا خلال ما يزيد على ستة عشر قرناً ، ورأينا كيف استطاعت هذه القبيلة أن تغالب الأحداث : تعلو حيناً وتهبط حيناً آخر ، تطفو على سطح الماء حيناً وتغوص حيناً ، ولكنها لا تغرق قط بفضل الحيوية النابضة فى كيانها وقدرتها على مغالبة الفناء ، ونبهنا فى كل حين إلى أسباب الصعود وأسباب الهبوط .

وانتهينا إلى أيامنا هذه ، حتى وقفنا عند الدولتين الكبيرتين الباقيتين لقريش : دولة الهواشم الحسنيين فى الأردن ، ودولة الشرفاء العلويين فى المغرب الأقصى ، ووقفنا عند محمد الخامس والحسين بن طلال والحسن بن محمد ، وهم من عترة رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله ورحمته المهداة ، وعند ذكر أولئك الثلاثة من ملوك عصرنا نقف بهذا الحديث الذى طال ، قصصنا فيه قصة - قريش - أصغر قبيلة فى التاريخ ، التى جعلها الإسلام ورسوله ﷺ أعظم قبائل التاريخ .

هنا نقف بالحديث عند ذكر المصطفى - صلوات الله عليه - وحفيديه الحسن والحسين ، وهو أجمل ما نقف عنده ، فقد كتب الله لقريش البقاء على الأيام بفضل محمد صلوات الله عليه والحسن والحسين ، وهل هناك ختام مسك هو أجمل من ذكر المصطفى صلوات الله عليه وسبطيه الشهيدين ريحانتى أهل الجنة ؟

* * *

مصادر الكتاب

أولاً : مصادر عربية :

- **ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى (ت ٦٥٨هـ) :**

أ) اعتاب الكتاب ، بتحقيق صالح الأشتر ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م .

ب) الحلة السيراء ، بتحقيق د. حسين مؤنس .

- **الأبشيهى ، شهاب الدين محمد بن حمد بن أبى الفتح (ت ٨٥٠هـ) :**

المستطرف فى كل فن مستظرف - جزءان ، المطبعة التجارية الكبرى (بدون تاريخ طبع) .

- **ابن الأثير ، أبو الحسن على بن أبى الكرم الجزرى (ت ٦٣٠هـ) :**

أ) أُسْد الغابة فى معرفة الصحابة - ٧مجلدات ، كتاب الشعب - القاهرة ١٩٧٠م .

ب) الكامل فى التاريخ - ٩أجزاء ، المكتبة المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٤٩هـ .

- **الإدريسى ، أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجى (ت ٥٦٠هـ) :**

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ١٥٠ جغرافيا).

- **أرنولد ، توماس :**

أ) الخلافة ، ترجمة جميل معلى ، دار اليقظة بدمشق ١٩٤٦م .

ب) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، مكتبة النهضة

obeikandl.com

المصرية - الطبعة الثانية سنة ١٩٤٧م .

- **الأزدى ، أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم (ت ٩٤٥هـ) :**

تاريخ الموصل ، تحقيق على حبيبة ، دار التحرير للطبع والنشر ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

- **الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٥٠هـ) :**

أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار - جزءان ، دار الأندلس (بدون تاريخ طبع) .

- **الإسفرائينى ، أبو المظفر (ت ٤٧١هـ) :**

التبصير فى الدين وتمييز الفرق الناجية عن الفرق الهالكين ، تحقيق : محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ، مطبعة الأنوار ، الطبعة الأولى ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م .

- **إسماعيل ، محمود :**

الحركات السرية فى الإسلام ، مطبعة روز اليوسف ١٩٧٣م .

- **الأشرف ، أبو العباس إسماعيل :**

فاكهة الزمان ومفاكهة الآداب والفتن فى أخبار من ملك اليمن ، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ١٤٠٩ تاريخ) .

- **الأشعرى ، أبو الحسن على بن إسماعيل (ت ٣٢٤هـ) :**

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - جزءان ، تصحيح : هـ. ريتر ، مطبعة الدولة ، استانبول سنة ١٩٢٩م .

- **ابن الأصبغ ، عرام (ت فى القرن الثالث الهجرى) :**

أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من الحياة ، نوادر المخطوطات ، بتحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة البابى الحلبى، القاهرة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م .

- **الأصفهانى ، أبو الفرج على بن الحسين (ت ٣٦٥هـ) :**

أ) الأغانى - ٢٤ جزءاً ، الأجزاء ١ - ١٦ مطبعة دار الكتب سنة ١٩١٣م ثم ابتداء من الأجزاء ١٧ - ٢٤ بتحقيق على محمد البجاوى وعبد الكريم إبراهيم ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، دار الكتاب العربى ١٣٨١هـ/ ١٩٧٠م .

ب) مقاتل الطالبيين ، بتحقيق السيد أحمد صقر ، مطبعة إحياء الكتب العربية سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م .

- **الأصمعى ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦هـ) :**

الأصمعيات ، بتحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٨م .

- **الأفغانى ، سعيد :**

أسواق العرب ، دار الفكر - دمشق (الطبعة الثانية) ١٩٦٠م .

- **الأكوع ، محمد بن على :**

الوثائق السياسية اليمنية ، دار الحرية - بغداد سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

- **الآلوسى ، محمود شكرى :**

تاريخ نجد ، بتحقيق محمود بهجة الأثرى ، بغداد سنة ١٣٤٧هـ .

- **أمين ، صالح محمد :**

النظام المالى والاقتصادى فى الإسلام ، مكتبة نهضة الشرق - القاهرة (الطبعة الأولى) سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

- **أنطوان ، نعمان :**

الطائر الغريد فى وصف البريد ، مطبعة المقتطف ، القاهرة ١٩٨٠هـ .

- **الأهدل ، الحسين بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٥٥هـ) :**

تحفة الزمن فى تاريخ سادات اليمن ، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٧٧٥ تاريخ تيمور) .

- **البخارى ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) :**

أ) الجامع الصحيح ، بريل – ليدن سنة ١٨٦٢م .

ب) كتاب التاريخ الكبير – ٥ أجزاء ، دار الكتب العلمية – بيروت (بدون تاريخ طبع) .

– **بخيت ، عبد الحميد :**

الخلافة الإسلامية (عصر الراشدين) ، دار العلم العربى – القاهرة ١٩٥٣م .

– **البرادى ، أبو القاسم إبراهيم (عاش فى القرن الثامن الهجرى) :**

الجواهر المنتقاة ، القاهرة سنة ١٨٨٤م .

– **بروكلمان ، كارل :**

تاريخ الشعوب الإسلامية (العرب والامبراطورية العربية) ، ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت – الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨م.

– **البغدادى ، صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ) :**

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع – ٣ أجزاء تحقيق : على محمد البجاوى مطبعة دار إحياء الكتب العربية – القاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤م – ١٣٧٣هـ .

– **البغدادى ، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ) :**

خزانة الأدب ولُبّ لباب لسان العرب – ١١ جزءاً تحقيق : عبد السلام محمد هارون . مطبعة دار الكاتب العربى للطباعة والنشر سنة ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م .

– **البغدادى ، عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت ١٠٣٧هـ) :**

الفَرْق بين الفِرَق ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة المدنى – القاهرة – بدون تاريخ طبع .

– **ابن بكار ، الزبير (ت ٢٥٦هـ) :**

جمهرة نسب قريش وأخبارها ، تحقيق : محمود محمد شاكر . مطبعة المدنى سنة ١٣٨١هـ .

- **البكرى ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ) :**

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضِع - ٤ أجزاء - تحقيق : مصطفى السقا. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥م .

- **البكرى ، صلاح:**

تاريخ حضر موت السياسى - جزءان ، المطبعة السلفية - الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤هـ .

- **البلاذرى ، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) :**

أ) أنساب الأشراف :

الجزء الأول ، بتحقيق : محمد حميد الله ، دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٥٥م .

الجزء الأول - القسم الثالث ، بتحقيق : عبد العزيز الدورى ، بيروت ١٩٧٨م .

الجزء الأول - القسم الرابع ، بتحقيق : إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٩م

الجزء الخامس ، مطبعة القدس ١٩٣٦م ، والمطبعة المصرية بالقاهرة ١٩٣٢م .

الجزء الحادى عشر ، مطبعة يولس أبل - غريغرولد ، سنة ١٨٨٣م .

الأجزاء : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٤٨٥٦ تاريخ) .

ب) فتوح البلدان ، المطبعة المصرية ، القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٥٠هـ .

- **بلياييف ، ى. أ :**

العرب والإسلام والخلافة العربية ، ترجمة : أنيس فريحة ، بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣م .

- **بندقجى ، حسين حمزة :**

جغرافية المملكة العربية السعودية ، الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٧م .

- **بيضون ، إبراهيم :**

الحجاز والدولة الإسلامية ، بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣م .

- **بيفوليفسكيا ، نينافكتورفنا :**

العرب على حدود بيزنطة وإيران (من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادى)، ترجمة صلاح الدين عثمان ، الكويت ١٩٨٥م .

- **ترسيس ، عدنان :**

اليمن وحضارة العرب ، دار مكتبة الحياة - بيروت (بدون تاريخ طبع) .

- **تزينى ، طيب :**

مشروع رؤية جديدة للفكر العربى فى العصر الوسيط ، دمشق ١٩٧٥م .

- **ابن تيمية ، تقى الدين :**

السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، دار الكاتب العربى ، مصر - الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٥م .

- **الثعالبى ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩هـ) :**

لطائف المعارف ، تحقيق : إبراهيم الأبيارى ، وحسن كامل الصيرفى .

دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - سنة ١٩٦٠م .

- **ثعلب ، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٩١هـ) :**

مجالس ثعلب (قسمان) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون . دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨م .

- **الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) :**

أ) البيان والتبيين ، تحقيق : فوزى عطوى . دار صعب - بيروت سنة ١٩٦٨م .

ب) الحيوان - سبعة أجزاء ، مكتبة الحلبى - الطبعة الأولى - سنة ١٣٥٩هـ مطبعة البابى - ١٩٤٠م .

ج) رسائل الجاحظ (جزءان) ، تحقيق : عبد السلام هارون . مطبعة الخانجى ، القاهرة ، سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

- **الجاسر ، حمد :**

فى شمال غرب الجزيرة ، منشورات دار اليمامة ، الرياض - الطبعة الأولى ١٩٧٠م.

- **جب ، هاملتون :**

دراسات فى حضارة الإسلام ، ترجمة : إحسان عباس وآخرين ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٤م .

- **جمعة محمد محمود :**

النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم الإسلامية ، القاهرة سنة ١٩٤٩م .

- **الجهشيارى ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣٠هـ) :**

الوزراء والكُتَّاب ، تحقيق : مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ، مطبعة البابى الحلبى - الطبعة الأولى سنة ١٩٣٨م .

- **جواد على :**

المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام - ١٠ أجزاء ، دار العلم للملايين - بيروت ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٠م .

- **الجوزى ، بندلى :**

تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ، الجزء الأول من تاريخ الحركات الاجتماعية، مطبعة بيت المقدس سنة ١٩٢٨م .

- **ابن الجوزى ، أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد (ت ٥٩٧هـ) :**

أ) سيرة عمر بن عبد العزيز ، نشر محب الدين الخطيب ، مطبعة المؤيد ، القاهرة ١٩٢١م .

ب) صفة الصفوة (٣ أجزاء) ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بمدينة حيدر آباد الدكن بالهند ، سنة ١٣٥٥هـ .

جـ) القُصَّاص والمذكِّرين ، تحقيق : مارلين سوارتز ، دار المشرق - بيروت ، (بدون تاريخ طبع) .

- **الجوهرى ، يسرى عبد الرازق :**

أ) الوطن العربى (دراسة فى الجغرافية التاريخية والإقليمية) ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة سنة ١٩٧٩م .

ب) جغرافية الشعوب الإسلامية ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٨١م .

- **الحارثى ، سالم بن حمد بن سليمان :**

العقود الفضية فى أصول الأباضية ، عمان ١٩٨٣م .

- **ابن حبيب ، أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥هـ) :**

أ) كتاب المحبَّر ، تحقيق : ايلزة ليشتنشترن ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بمدينة حيدر أباد - الدكن بالهند ، سنة ١٩٤٢م .

ب) المنمَّق فى أخبار قريش ، بتحقيق خورشيد أحمد فاروق ، والكتابان مطبوعان بمطبعة الجامعة العثمانية بالهند ، سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م .

- **حتى ، فيليب :**

أ) تاريخ العرب (مطول) ، ٣ أجزاء ، الجزء الأول ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع - بيروت الطبعة الثالثة ١٩٥٨م .

ب) العرب (تاريخ موجز) ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٤٦م .

- **ابن حجر ، أحمد بن على بن محمد (ت ٨٥٢هـ) :**

الإصابة فى تمييز الصحابة (٤ أجزاء) ، دار الكتاب العربى (بدون تاريخ طبع) .

- **الحداد ، محمد يحيى :**

تاريخ اليمن السياسى ، الجزءان : الأول والثانى ، دار وهدان للطباعة والنشر ، القاهرة - الطبعة الأولى - ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م .

- **ابن أبى الحديد ، عز الدين أبو حامد هبة الله (ت ٦٥٥هـ) :**

شرح نهج البلاغة (٢٢ جزءاً) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٥م .

- **الحربى (وُلِد سنة ١٩٨هـ) :**

المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، تحقيق حمد الجاسر ، دار اليمامة - الرياض ، سنة ١٩٦٩م .

- **ابن حزم ، أبو محمد على بن أحمد (ت ٤٥٦هـ) :**

أ) جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف - القاهرة ١٩٨٢م .

ب) الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل (٥ أجزاء) ، المطبعة الأدبية بالقاهرة سنة ١٣٢١هـ .

- **حسن ، حسن إبراهيم :**

تاريخ الإسلام السياسى، (٤ أجزاء) طبعات كثيرة عن النهضة المصرية ، القاهرة.

- **حسونة ، محمد أحمد :**

أ) الجغرافية التاريخية الإسلامية ، مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٠م .

ب) دراسات فى العالم العربى ، النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٨م .

- **الحسينى ، عبد المحسن :**

الأقسام الجغرافية للجزيرة العربية ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، بغداد ، المجلد الحادى عشر ١٩٦٤م .

- **حسين ، مولوى س. أ. ق :**

الإدارة العربية ، ترجمة : إبراهيم أحمد العدوى ، مطبعة الآداب ١٩٥٨م .

- **حفنى ، عبد الحليم :**

شعر الصعاليك (منهجه وخصائصه) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م .

- **حلمى ، محمد :**

الخلافة والدولة فى العصر الأموى ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٧٤م .

- **حمدان ، جمال :**

أ) أنماط من البيئات ، مطبعة لجنة البيان العربى - القاهرة (بدون تاريخ طبع) .

ب) العالم العربى ، القاهرة ١٩٧١م .

- **ابن حميد السالمى ، نور الدين عبد الله :**

تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، جزءان ، مطبعة الشباب ، القاهرة ١٣٥٠هـ .

- **حميد الله ، محمد :**

مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤١م ، وأُعِيد طبعه مراراً بعد ذلك .

- **الحفنى ، قطب الدين (ت ٩٨٨هـ) :**

تاريخ القرطبى المسمى كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام فى تاريخ مكة المشرفة ، شرح وتعليق : محمد ضاهر بن الكردى ، المكتبة العلمية بمكة المشرفة ١٩٧٠م .

- **أبو حنيفة ، أحمد بن داوود الدينورى (ت ٢٨٢هـ) :**

الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٠م .

- **حورانى ، جورج فاضلو :**

العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٥٨م .

- **الحوفى ، أحمد محمد :**

أدب السياسة فى العصر الأموى ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٠م .

- **ابن حوقل ، أبو القاسم (من علماء القرن الرابع الهجرى) :**

صورة الأرض - جزءان ، ليدن - الطبعة الثانية ١٩٣٨م .

- **ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ) :**

المسالك والممالك ، بريل - ليدن سنة ١٨٨٩م .

- **الخصَّاف ، أبو بكر أحمد بن عمر بن مهير الشيبانى (ت ٢٦١هـ) :**

أدب القاضى ، شرح الجصاص أبو بكر أحمد بن على الرازى ، تحقيق : فرحات زيادة ، قسم النشر بالجامعة الأمريكية ، القاهرة ١٩٧٩م .

- **الخضرى ، محمد :**

تاريخ الأمم الإسلامية - جزءان ، المكتبة التجارية - القاهرة .

- **ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ) :**

أ) العِبَر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، طبعة بولاق (٧ أجزاء) .

ب) المقدمة ، المطبعة الأزهرية - القاهرة سنة ١٣٤٨هـ .

- **ابن خَلِّكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم (ت ٦٨١هـ) :**

وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، (٦ أجزاء) ، بتحقيق محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٤م .

-خليف ، يوسف :

الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ، دار المعارف - القاهرة ١٩٥٩م .

- ابن خميس ، عبد الله بن محمد :

المجاز بين اليمامة والحجاز ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض (بدون تاريخ طبع) .

- الخوارزمى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب (ت ٣٨٧هـ) :

مفاتيح العلوم ، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة (الطبعة الثانية) ، سنة ١٩٨١م .

- ابن خياط ، خليفة (ت ٢٤٠هـ) :

أ) تاريخ خليفة بن خياط ، الجزء الأول ، تحقيق : أكرم ضياء العمرى ، مطبعة الآداب فى النجف الأشرف ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧م .

ب) الطبقات ، تحقيق : سهيل زكار ، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومى ، دمشق سنة ١٩٦٦م .

- دائرة المعارف الإسلامية :

جماعة من المستشرقين ، ترجمة عبد الحميد يونس وآخرين ، القاهرة ١٩٣١م ، والطبعة الثانية صدر منها إلى الآن خمسة أجزاء ، لم يُترجم منها شىء .

- دبور ، محمد على :

تاريخ المغرب الكبير (٣ أجزاء) ، إحياء الكتب العربية ، القاهرة (طبعة أولى) ، سنة ١٩٦٣م .

- الدرجين ، أبو العباس أحمد بن سعيد (ت ٦٧٠هـ) :

طبقات المشايخ بالمغرب (جزءان) ، تحقيق : إبراهيم طلاى ، طبع الجزائر سنة ١٩٧٤م .

- **ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد بن أيدمر (ت ٨٠٩هـ) :**

الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، المطبعة الكبرى - بولاق - القاهرة سنة ١٨٩٣م.

- **الدمشقى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الأنصارى (ت ٧١٧هـ):**

نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، مطبعة ليبزج سنة ١٩٢٣م .

- **الدورى ، عبد العزيز :**

مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ، منشورات مكتبة المثنى بغداد - سنة ١٩٤٩م .

- **ابن الدَّيْبع الشيبانى ، عبد الرحمن بن على بن محمد (ت ٩٤٤هـ) :**

قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٢٢٤ تاريخ) .

- **الذهبى ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) :**

أ) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام - ٤ أجزاء مكتبة القدس - القاهرة سنة ١٣٦٧هـ .

ب) دول الإسلام - جزءان ، دائرة المعارف النظامية - حيدر آباد الدكن ، سنة ١٣٣٧هـ - الطبعة الأولى .

جـ) سير أعلام النبلاء : ٣ أجزاء ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٦٢م .

د) العِبَر فى خبر مَنْ غَبَر - جزءان ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، دائرة المطبوعات والنشر - الكويت - سنة ١٩٦٠م .

- **الرازى ، فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ) :**

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، مراجعة على سامى النشار ، مطبعة النهضة المصرية سنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م .

- **الرازى ، أحمد بن عبد الله (ت ٤٦٠هـ) :**

تاريخ صنعاء اليمن ، مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٥٣٧٨ تاريخ) .

- **ابن رسته ، أبو على أحمد بن عمر (ت ٣٩٠هـ) :**

الأعلاق النفيسة ، مطبعة بريل - ليدن سنة ١٨٩١م .

- **الريس ، محمد ضياء الدين :**

أ) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، مطبعة الأنجلو المصرية - الطبعة الثانية سنة ١٩٦١م .

ب) النظريات السياسية الإسلامية ، مكتبة دار التراث - القاهرة - الطبعة السادسة.

-**زامباور :**

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة - جزءان ، ترجمة زكى محمد حسن وآخرين ، جامعة فؤاد الأول - القاهرة سنة ١٩٥١م .

- **زلهايم ، رودولف :**

فتنة عبد الله بن الزبير ، ترجمة حسام الصغير ، مجلة مَجْمع اللغة العربية بدمشق ، جزء ٤ ، مجلد ٤٩ ، سنة ١٩٧٣م .

- **زيدان ، جورجى :**

أ) تاريخ التمدن الإسلامى ، مطبعة الهلال ، القاهرة. الطبعة الخامسة ، بإشراف د. حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٧م .

ب) العرب قبل الإسلام ، الجزء الأول .

- **سالم ، السيد عبد العزيز :**

أ) دراسات فى تاريخ العرب - جزءان ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧م .

ب) تاريخ الدولة العربية (تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية) ، مطبعة مؤسسة الثقافة الجامعية ، القاهرة .

جـ) تـاريخ العـرب قبل الإسـلام ، مطبعـة مؤسسـة الثقافـة الجامعيـة ، القاهـرة ١٩٧٣م.

- **السجستانى ، أبو حاتم (ت ٢٥٠هـ) :**

المعمرون والوصايا ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦١م .

- **السخاوى ، شمس الدين (ت ٩٠٢هـ) :**

التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٨م .

- **السدوسى ، مُؤَرِّج بن عمرو (ت ١٩٥هـ) :**

حَذْق من نسب قريش ، نشر صلاح الدين المنجد ، دار المدنى - مصر ١٩٦٠م.

- **سرور ، محمد جمال الدين :**

الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسـلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٦٠م .

- **ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠هـ) :**

الطبقات الكبرى (٩ أجزاء) ، بتحقيق إدوار سخاو - يوليوس ليرث ، مطبعة بريل - ليدن سنة ١٣٣٥هـ ، وعلى أساسها عملت دار الشعب طبعتها فى ثمانية أجزاء ، وقد اعتمدنا عليها .

- **سعداوى ، نظير حسان :**

نظام البريد فى الدولة الإسلامية ، دار مصر للطباعة - القاهرة ١٩٥٣م .

- **سليمان ، حسين محمود :**

ثقيف من ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ (رقم ١٠٤٢) .

- **ابن سلام الإباضى (ت ٢٧٣هـ) :**

الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية ، تحقيق : ف. شفارتز وسالم بدر يعقوب ، دار إقرأ للنشر والتوزيع ، بيروت . الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

- **ابن سلام الجمحى ، محمد (ت ٢٣١هـ) :**

طبقات الشعراء ، بتحقيق الأستاذ الشيخ محمود محمد شاكر ، الطبعة الثانية فى جزأين ، القاهرة .

- **ابن سلام ، أبو عبيد القاسم (ت ٢٢٤هـ) :**

الأموال ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة ، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

- **ابن سمرة الجعدى ، عمر بن على (عاش فى القرن السادس الهجرى) :**

طبقات فقهاء اليمن وعيون من أخبار سادات رؤساء الزمن ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٩٥٧م .

- **السمهودى ، نور الدين على بن أحمد (ت ١٠١١هـ) :**

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ ، جزءان ، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣٢٦هـ .

- **السيابى ، سالم بن حمود :**

أ) الزلة الوعثاء عن اتباع أبى الشعثاء ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ١٩٧٩م .

ب) الحقيقة والمجاز فى تاريخ الأباضية باليمن والحجاز ، مطابع سجل العرب بالقاهرة سنة ١٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

جـ) طلقات المعهد الرياضى فى حلقات المذهب الأباضى ، مطابع سجل العرب ، القاهرة سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

- **السيد ، رضوان :**

الأمة والجماعة والسلطة ، دار إقرأ للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ١٩٨٤م

- **ابن سيده ، أبو الحسن على بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ) :**

المخصص (٥ مجلدات) ، مركز الموسوعات العالمية ، بيروت ١٩٧٥م .

- **سيف بن عمر (ت ٢٠١هـ) :**

الفتنة ووقعة الجمل ، جمع وتصنيف أحمد راتب عرموس ، دار النفائس ، بيروت سنة ١٩٧٢م .

- **السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ) :**

تاريخ الخلفاء ، المطبعة اليمنية ، القاهرة سنة ١٣٠٥هـ .

- **الشافعى ، أبو عبد الله محمد بن إدريس (ت ٢٦٤هـ) :**

الأم - سبعة أجزاء ، المطبعة الأميرية - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٣٢١هـ .

- **الشريف ، أحمد إبراهيم :**

دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الأول والثانى للهجرة ، دار الفكر العربى بالقاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨م .

- **الشماخى ، أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت ٧٩٢هـ) :**

السِّير ، طبع حجر بالقاهرة (بدون تاريخ طبع) .

- **الشهرستانى ، محمد بن عبد الكريم (ت ٤٥٨هـ) :**

الملل والنحل - جزءان ، تحقيق : محمد بن فتح الله بدران ، مطبعة الأزهر - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٥١م .

- **صادق ، دولت أحمد :**

جغرافية العالم (دراسة إقليمية) الجزء الأول (آسيا وأوربا) ، مكتبة الأنجلو - سنة ١٩٦٥م .

- **صالح ، صبحى :**

النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٥م .

- **الصوافى ، صالح بن أحمد :**

الإمام جابر بن زيد العمانى وآثاره فى الدعوة ، مطبعة الألوان الحديثة ، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

- **الصولى ، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٦هـ) :**

أدب الكتاب ، تصحيح محمد بهجة الأثرى . المطبعة السلفية - القاهرة سنة ١٣٤١هـ .

- **ضرار ، صالح :**

العرب من معين إلى الأمويين ، دار مكتبة الحياة - بيروت (بدون تاريخ طبع) .

- **الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) :**

أ) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (١٠ أجزاء) ، دار المعارف - القاهرة - الطبعة الرابعة ١٩٧٩م .

ب) اختلاف الفقهاء ، نشر يوسف شاخت ، مطبعة بريل - ليدن سنة ١٩٣٣م .

- **الطرطوشى ، أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد (ت ٥٢٠هـ) :**

سراج الملوك ، المطبعة المحمدية التجارية ، القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٣٥م .

- **ابن الطقطقى ، محمد بن على بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ) :**

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، القاهرة سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

- **طلس ، محمد أسعد :**

عصر الاتساق (تاريخ بنى أمية) ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان - الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨م .

- **ابن طولون ، شمس الدين (ت ٩٥٣هـ) :**

قضاة دمشق (الثغر البسَّام فى ذكر من وَلِى قضاء الشام) « مرفق به كتاب القضاة الشافعية لمحيى الدين النعيمى » . تحقيق صلاح الدين المنجد ، المجمع العلمى العربى - دمشق سنة ١٩٥٩م .

- **ابن ظهيرة ، جمال الدين محمد جاد الله بن محمد نور الدين (القرن العاشر الهجرى):**

الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف . مطبعة عيسى البابى الحلبى - الطبعة الثانية - سنة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م .

- **العباسى ، أحمد بن عبد الحميد (ت القرن العاشر الهجرى) :**

شرح شواهد التلخيص (المسمى معاهد التنصيص) - جزءان - المطبعة البهية - القاهرة - سنة ١٣١٦هـ .

- **ابن عبد البر ، (ت٤٦٣هـ) :**

الاستيعاب فى أسماء الأصحاب « مرفق بكتاب الإصابة لابن حجر » - ٤ أجزاء . دار الكتاب العربى - بدون تاريخ طبع .

- **ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢١٤هـ) :**

أ) سيرة عمر بن عبد العزيز ، تعليق أحمد عيد ، مطبعة وهبة - بدون تاريخ طبع .

ب) فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، مطبعة لجنة البيان العربى سنة ١٩٦١م .

جـ) فتوح أفريقية والأندلس مع ترجمة فرنسية وتعليقات ، عمل ألبرت جاتو - مدينة الجزائر سنة ١٩٤٧م .

- **عبد الحكيم ، محمد صبحى :**

الوطن العربى - أرضه وسكانه وموارده ، الأنجلو بالقاهرة سنة ١٩٨٠م .

- **ابن عبد ربه ، شهاب الدين أحمد (ت ٣٢٨هـ) :**

العِقْد الفريد (٤ أجزاء) - المطبعة الأزهرية - القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م .

- **عبد الله ، أمين محمود :**

الجغرافية التاريخية لحوض البحر الأحمر ، المطبعة الحديثة - القاهرة ١٩٧١م .

- **أبو عبيدة ، معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) :**

نقائض جرير والفرزدق - ٣ أجزاء ، تحقيق أنطونى بيفان ، ليدن ١٩٠٩م .

- **العبيدى ، عبد الجبار :**

تاريخ الطائف حتى الفتح الإسلامى .

- **العجلانى ، منير :**

عبقرية الإسلام فى أصول الحكم ، دار الكتاب الجديد - بيروت . الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥م .

- **العدوى ، إبراهيم أحمد :**

أ) الأُمويون والبيزنطيون (البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية) - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة .

ب) النظم الإسلامية (مقاومتها الفكرية ومؤسساتها التنفيذية فى صدر الإسلام والعصر الأُموى) . مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٧٢م .

- **ابن عرنوس ، محمود بن محمد :**

تاريخ القضاء فى الإسلام ، مطبعة الحلبى - مصر .

- **عروة والسموأل** : ديوانا عروة بن الورد بن زياد العبسى (ت ٥٩٦هـ) ، وغريض بن عادى الغسانى (ت ٥٦٠هـ) ، دار صادر - بيروت ١٩٦٤م .

- **ابن عساكر ، أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ) :**

تهذيب تاريخ دمشق الكبير - ٧ أجزاء - دار المسيرة ١٩٧٩م .

- **العسكرى ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥هـ) :**

كتاب الأوائل ، تحقيق : محمد السيد الوكيل ، المدينة المنورة ١٩٦٦م .

- **العلوى ، هادى :**

فى السياسة الإسلامية (الفكر والممارسة) . دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت سنة ١٩٧٤م .

- **العلى ، صالح أحمد :**

محاضرات فى تاريخ العرب - الجزء الأول . مطبعة المعارف - بغداد - العراق - سنة ١٩٥٥م .

- **ابن العماد الحنبلى ، أبو الفلاح عبد الحى (ت ١٠٨٩هـ) :**

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (٨ أجزاء) مكتبة القدس - القاهرة ١٣٥٠هـ.

- **عمارة ، محمد :**

الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية ، دار الهلال - سنة ١٩٨٣م .

- **ابن العمرى ، شهاب الدين :**

التعريف بالمصطلح الشريف مصر - ١٣١٢هـ .

- **عوض ، إبراهيم نجيب محمد :**

القضاء فى الإسلام (تاريخه ونظامه) . مطبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

- **غنيم ، أحمد محمد :**

تطور الملكية الفردية ، الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة بدون تاريخ طبع .

- **الفاسى ، أبو الطيب تقى الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ) :**

أ) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (جزءان) ، دار إحياء الكتب العربية ، سنة ١٩٥٦م.

ب) العِقْد الثمين فى تاريخ البلد الأمين (٨ أجزاء) ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٥٩م .

- **الفاكهى :**

المنتقى فى أخبار أم القرى

منتخبات من « تاريخ مكة » ومن « شفاء الغرام فى أخبار البلد الحرام » للفاسى ، ومن كتاب « الجامع اللطيف فى فضائل مكة وبناء البيت الشريف » لابن ظهيرة ، ليبزج سنة ١٨٥٩م .

- **فانسينك ، أ. ى :**

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ، بريل - ليدن سنة ١٩٦٣م .

- **فخرى ، أحمد :**

أ) اليمن (ماضيها وحاضرها) ، مطبعة الرسالة - القاهرة سنة ١٩٥٧م .

ب) دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، مطبعة الأنجلو المصرية بالقاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٩٣٦م .

- **أبو الفدا ، عماد الدين بن إسماعيل بن نور الدين (ت ٧٣٢هـ) :**

أ) تقويم البلدان ، باريس سنة ١٨٤٠م .

ب) المختصر فى أخبار البشر ، (٣ أجزاء) المطبعة الحسينية (بدون تاريخ طبع) .

- **ابن فرحون ، برهان الدين إبراهيم (ت ٧٩٩هـ) :**

تبصرة الحكام فى أصول الأقضية ومناهج الأحكام ، جزءان ، المطبعة البهية ، القاهرة سنة ١٣٠٢هـ .

- **فروخ ، عمر :**

تاريخ الجاهلية ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٤م .

- **ابن الفقيه ، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى (من أهل القرن الثالث الهجرى) :**

مختصر كتاب البلدان ، بريل - ليدن سنة ١٣٠٢هـ - ١٨٨٥م .

- **فلهوزن ، يوليوس :**

أ) الخوارج والشيعة ، وكالة المطبوعات - الكويت ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٨م .

ب) تاريخ الدولة العربية ، تعريب محمد عبد الهادى أبو ريدة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨م .

- **الفيروز أبادى ، مجد الدين (ت ٨١٦هـ) :**

القاموس المحيط (٤ أجزاء) ، المكتبة التجارية الكبرى - مصر ، الطبعة الخامسة سنة ١٩٥٤م .

- **ابن فهد ، نجم الدين عمر بن الحافظ (ت ٨٨٥هـ) :**

اتحاف الورى بأخبار أم القرى « ثلاثة أجزاء » مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٢٢٠٤ تاريخ تيمور) .

- **ابن القاسم ، يحيى بن الحسين (ت ١١٠٥هـ) :**

أنباء الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ١٣٤٧ تاريخ) .

-**قاسم ، عون الشريف :**

نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول (ﷺ) (دراسة وثائق العهد النبوى) دار الكتاب اللبنانى - بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

- **ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) :**

أ) الإمامة والسياسة - جزءان ، تحقيق طه محمد الزينى ، مطابع سجل العرب ١٩٦٧م .

ب) الشعر والشعراء - جزءان ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف سنة ١٩٦٦م .

جـ) عيون الأخبار (٤ أجزاء) ، طبعة دار الكتب سنة ١٩٦٣م .

د) المعارف ، بتحقيق ثروت عكاشة ، الطبعة الرابعة دار المعارف سنة ١٩٣٤م .

- **ابن قدامة المقدسى ، موفق الدين عبد الله بن محمد (ت ٦٢٠هـ) :**

التبيين فى أنساب القرشيين . مخطوط بدار الكتب المصرية :

الجزء الأول (برقم ٣٥٨٣٤ تاريخ - ميكروفيلم) .

الجزء الثانى (برقم ٤١٤٠١ تاريخ - ميكروفيلم) .

- **قدامة ، أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٢٨هـ) :**

الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدى . دار الرشيد للنشر - العراق - سنة ١٩٨١م .

- **القرافى ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس (ت ٦٨٤هـ) :**

الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى والإمام . مطبعة الأنوار - الطبعة الأولى سنة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م .

- **القرشى ، يحيى بن آدم (ت ٢٠٣هـ) :**

الخراج ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس . دار الشروق - القاهرة ١٩٨٧م .

- **القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن فرج المالكى (ت ٤٩٧هـ) :**

أقضية رسول الله (ﷺ) . دار الوعى - حلب ، سوريا - الطبعة الأولى سنة ١٣٩٦هـ .

- **القلقشندى ، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ) :**

أ) صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب المصرية (١٠ أجزاء) - القاهرة سنة ١٩١٣م.

ب) نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق : إبراهيم الأبيارى ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة . الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩م .

- **الكاشف ، سيدة إسماعيل :**

عُمان فى فجر الإسلام ، مطبعة سجل العرب ، القاهرة ١٩٨٢م .

- **كاهن ، كلود :**

تاريخ العرب والشعوب الإسلامية (منذ ظهور الإسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية) ، دار الحقيقة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٧م .

- **الكتانى ، عبد الحى:**

التراتيب الإدارية ، جزءان ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

- **ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) :**

البداية والنهاية ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٩٣٢م .

- **كحالة ، عمر رضا :**

أ) جغرافية شبه الجزيرة العربية ، المطبعة الهاشمية - دمشق - سنة ١٩٤٤م .

ب) معجم القبائل العربية - دمشق ١٩٥٠م .

- **كرد ، محمد :**

الإدارة الإسلامية فى عز العرب ، مطبعة مصر - القاهرة - سنة ١٩٣٤م .

- **ابن أبى كريمة ، أبو عبيدة مسلم (ت ١٣٥هـ) :**

رسالة أبى كريمة فى الزكاة للإمام أبى الخطاب المعافرى ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ١٩٨٢م .

- **الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠هـ) :**

الولاة وكتاب القضاة ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨م .

-**ماجد ، عبد المنعم :**

تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى . مطبعة مكتبة الأنجلو - القاهرة - الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٨م .

- **الماوردى ، أبو الحسن على محمد بن حبيب البصرى (ت ٤٥٠هـ) :**

الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار التوفيقية للطباعة ، القاهرة ١٩٧٨م .

- **المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر (ت ٢٨٥هـ) :**

تهذيب الكامل ، تحقيق : السباعى بيومى ، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٢٣م .

- **متولى ، محمد موسى :**

حوض الخليج العربى - ثلاثة أجزاء ، مطبعة دار الطباعة الحديثة - القاهرة .

- **مدكور ، محمد سلام :**

القضاء فى الإسلام ، دار النهضة العربية - سنة ١٩٦٥م .

-**مدور ، جميل نخلة :**

حضارة الإسلام فى دار السلام ، المطبعة الأميرية - القاهرة - سنة ١٩٣٦م .

- **مراد ، ياسين محمد :**

جغرافية العالم الإسلامى ، دار العلم للطباعة - القاهرة - سنة ١٩٧٩م .

- **المراكشى ، ابن عذارى (ت أواخر القرن السابع الهجرى) :**

البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ليدن سنة ١٨٤٨م - وأعاد طبعه فى خمسة أجزاء إحسان عباس فى بيروت سنة ١٩٧٤م .

- **المرزوقى ، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ) :**

شرح ديوان الحماسة ، تحقيق : أحمد أمين ، وعبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٧١هـ .

- **مروة ، حسين :**

النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية (جزءان) دار الفارابى - بيروت - الطبعة الرابعة - سنة ١٩٨١م .

- **المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦هـ) :**

مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ أجزاء) ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ببيروت سنة ١٩٨٢م .

- **مُشَرَّفة ، عطية مصطفى :**

القضاء فى الإسلام ، مطبعة دار الغد - الطبعة الثانية - سنة ١٩٦٦م .

- **المصعب الزبيرى ، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ) :**

نسب قريش ، تحقيق : ليفى بروفنسال ، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٣م .

- **مصلحة البريد :**

تاريخ البريد ، المطبعة الأميرية - القاهرة - سنة ١٩٣٤م .

- **المقدسى ، شمس الدين أبو عبد الله البشارى (ت ٣٥٥هـ) :**

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل - ليدن سنة ١٩٠٩م .

- **المقدسى ، مطهر بن طاهر (من علماء أواخر القرن الرابع الهجرى) :**

البدء والتاريخ - ٦ أجزاء ، طبع باريس سنة ١٨٩٩م .

- **المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ) :**

أ) الخطط المقريزية ، مطبعة النيل ، سنة ١٣٢٤هـ .

ب) النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، بتحقيق د. حسين مؤنس . ذخائر العرب . القاهرة ١٩٨٧م .

- **مليجى ، أحمد محمد :**

النظام القضائى الإسلامى ، دار التوفيق النموذجية للطباعة ، القاهرة ١٩٨٤م .

- **مؤلف مجهول :**

تاريخ أهل عمان ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور - مطابع سجل العرب - القاهرة سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

- **مؤلف مجهول :**

خلافة الوليد بن عبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك . ليدن سنة ١٨٥٣م.

- **مؤلف مجهول ، أحد علماء الأباضية :**

كشف الغمة لأخبار الأمة . مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ١٢٩٦٨ح) .

- **مؤلف مجهول :**

نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدن والآفاق . مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٢٦٥ جغرافيا) .

- **مؤلف مجهول :**

العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، الجزء الثالث ليدن سنة ١٨٧١م ، ثم الجزء الرابع بتحقيق : نبيلة عبد المنعم داوود - بغداد سنة ١٩٧٢م .

- **موسيل ، الويس :**

شمال الحجاز ، مطابع رمسيس - القاهرة سنة ١٩٥٢م .

- **موسى ، محمد يوسف :**

نظام الحكم فى الإسلام - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر - القاهرة ، الطبعة الثانية - سنة ١٩٦٣م .

- **مؤنس ، حسين :**

دراسات فى السيرة النبوية ، الزهراء للإعلام العربى - القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥م .

- **نافع ، محمد مبروك :**

عصر ما قبل الإسلام ، مطبعة السعادة - القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢م .

- **ابن النجار ، محمد بن محمود (ت ٦٤٧هـ) :**

الدرة الثمينة فى أخبار المدينة ، مرفق بكتاب شفاء الغرام ، القاهرة ١٩٥٦م .

- **النجار ، حسين فوزى :**

الإسلام والسياسة - مطابع دار الشعب - القاهرة - سنة ١٩٧٧م .

obeikandl.com

- **النجم ، عبد الرحمن عبد الكريم :**

البحرين فى صدر الإسلام وأثرها فى حركة الخوارج ، مطبعة الجمهورية - بغداد - سنة ١٩٧٣م .

- **النجيرمى ، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن محمد (ت ٣٥٥هـ) :**

أيمان العرب وطلاقتها ، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٣٦٢ لغة)

- **نخبة من علماء الهند :**

الفتاوى الهندية (المسماة العالمكرمة) ، المطبعة الأميرية - القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٣١٠هـ .

- **النص ، إحسان :**

العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى ، رسالة دكتوراه - كلية آداب القاهرة - سنة ١٩٦٢- برقم ٢٦١ .

- **النَّكَدى ، عارف (ت ١٩٧٥) :**

القضاء فى الإسلام ، مطبعة الترقى - دمشق - سنة ١٩٢٢م .

- **أبو نعيم الأصبهانى ، أحمد بن عبد الله (تَ ٤٣٠هـ) :**

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٣٢م .

- **نيلسن ، ديتلف وآخرون :**

التاريخ العربى القديم ، ترجمة فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٥٨م .

- **النووى ، أبو زكريا محيى الدين بن شرف (ت ٦٧٦هـ) :**

تهذيب الأسماء واللغات ، جزءان ، المطبعة المنيرية بالقاهرة (د. ط.)

- **النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ) :**

نهاية الأرب فى فنون الأدب من ١ إلى ٢٣ بتحقيق محققين مختلفين - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦م .

- **هاشم ، (مهدى طالب) :**

الحركة الأباضية فى المشرق العربى (نشأتها وتطورها حتى نهاية ق ٣هـ) - كلية الآداب - جامعة بغداد - ١٩٧٧م ، برقم ٠٢ , ٩٥٣ مكتبة آداب عين شمس.

- **الهَجَرى ، أبو على :**

أبحاث فى تحديد المواضع ، تحقيق : حمد الجاسر ، دار اليمامة الرياض ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م .

- **ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٣هـ) :**

السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ، القاهرة ، دار مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٣٦ .

- **هل ، ى :**

الحضارة العربية ، ترجمة إبراهيم أحمد العدوى ، دار الهلال سنة ١٩٧٩م .

- **الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ) :**

أ) الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حِمْيَر - الجزء الثانى ، تحقيق : محمد بن على الأكوع ، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م .

ب) الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير - الجزء العاشر تحقيق : محب الدين الخطيب - الدار اليمنية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧م .

جـ) صفة جزيرة العرب - بتحقيق : محمد بن على الأكوع اليمانى ، دار اليمامة بالرياض عن الطبعة الأولى : بريل - ليدن سنة ١٨٨٤م .

- **هيكل ، محمد حسين :**

حياة محمد ، دار الكتب المصرية (الطبعة الثالثة) ١٣٥٨هـ .

- **وات ، مونتجمرى :**

البدو ، ترجمة إبراهيم زكى خورشيد وآخرين ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨١م .

- **الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى :**

تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزَن فى حوادث تاريخ اليمن ، الدار اليمنية للنشر والتوزيع ١٩٨٢م .

- **وكيع ، محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ) :**

أخبار القضاة (٣ أجزاء) ، عالم الكتب - بيروت (د. ط.) .

- **ولفنسون ، إسرائيل :**

تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة سنة ١٩٢٧م .

- **ولكنسون ، ج. س :**

بنو الجلندى فى عمان ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ١٩٨٢م .

- **وهبه ، حافظ:**

جزيرة العرب فى القرن العشرين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة - الطبعة الخامسة سنة ١٩٦٧م .

- **ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ) :**

معجم البلدان - طبعة الساسى ٦ أجزاء . القاهرة ١٩٠٦م .

- **اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢هـ) :**

أ) البلدان - طبعة ليدن ١٨٩١م ، (مرفق بكتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته) .

ب) تاريخ اليعقوبى - ٣ أجزاء ، النجف - العراق سنة ١٣٥٨هـ .

- **أبو يعلى : محمد بن الحسين الفراء الحنبلى (ت ٤٥٨هـ) :**

الأحكام السلطانية ، تصحيح : محمد حامد الفقى مطبعة البابى الحلبى - الطبعة الثانية سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .

- **أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ) :**

الخراج ، المطبعة السلفية - القاهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٣٥٢هـ .